دور المثقف العربي (*)

فوزي كيالي

ما أظن أن هذا العنوان يكتمل أو يستقيم اذا لم أقل « دور المثقف العربي في المرحلة الراهنة » .

هذه الاضافة هامة لأنها تحدد الزمان. وتحديد الزمان كما تعلمون شيء هام وأساسي لتحديد طبيعة الدور وأبعاده، شأنه في ذلك شأن الانتساب الذي حددناه الى درجة ما بكلمة عربي .

فالمثقف كأي انسان ، يمكن أن يكون له أكثر من دور ، وانما يتحدد له دور بذاته من خلال سياق تاريخي معين واطار اجتماعي راهن .

وقبل ان نبحث في دور المثقف العربي في المرحلة الراهنة ، لابد لنا من أن نعرف من هو المثقف العربي أولاً ؟ وماهي الحدود التي تفصل بينه وبين

(*) من محاضرة ألقيت في النادي العربي بدمشق مساء ٢٨ / ٣ / ١٩٧٢

الآخرين من الناس من ابناء امته ووطنه ؟ وما هي الحدود التي تفصل بينه وبين الآخرين من المثقفين من غير العرب ؟

وهذا يقودنا بالتأكيد الى ان نبدأ بتعريف الثقافة حتى لاتختلط الحدود بين المفاهيم ، وحتى نستطيع من خلال فهم معنى الثقافة ان نحدد الأشخاص الذين نعنيهم بحديثنا هذا والذين نبحث لهم عن دور يؤدونه .

وما أظن أن مهمة أشق ولا أصعب على النفس من مهمة وضع الحدود بين المفاهيم ، بحيث تأتي الحدود جامعة مانعة كما يقول اهل المنطق. ومع ذلك فلابد من بذل المحاولة في هذا السبيل .

ماهي الثقافة ؟ وما الفرق بينها وبين العلم او المعرفة مثلا اذا كان هنالك من فرق؟

هل كل متعلم مثقف ؟ حملة الشهادات الجامعية مثلاً .. هل هم جميعاً مثقفون ؟.. والآخرون ممن لايحملون هذه الشهادة ، هل هم بالضرورة غير مثقفين ؟..

من اين تبدأ الثقافة ؟.. وكيف تتجلى ؟ وبأي مقياس تقاس ؟..

هذه اسئلة تطرح نفسها ، وتقتضي أجوبة عنها. إن لم تكن اجوبة حاسمة وقاطعة ، فلتكن اجوبة قادرة على الاحاطة بالمشكلة وتقدير حجمها وابعادها على الأقل ...

اذا كان العلم هو حقائق وقوانين ومعلومات ، ومقاييس وارقاماً ، فإن الثقافة هي مفاهيم وقيم وتصورات وعادات وقدرة على التذوق .

وبهذا تصبح الثقافة صفة اساسية من صفات الانسان ، أي انسان ، امياً كان ام حاصلاً على ارقى الدرجات العلمية ، مثقفاً كان — بالمعنى الاصطلاحي — او غير مثقف .

« فالثقافة رؤية عامة الى الحياة والمجتمع ، تتجسد في السلوك الفكري والوجداني والأخلاقي والذوقي للانسان عامة .

ولكل انسان ثقافته ، مهما كان مستوى هذه الثقافة ، ومهما كانت طبيعة هذه الثقافة ، فليس هناك انسان يخلو عقله ووجدانه وضميره وحسه من خبرة حية ، من وجهة نظر ، من موقف .

فنحن لا نعمل في مجتمع مفرغ من الثقافة ، حتى بين أشد فئاته الاجتماعية تخلفاً من الناحية الحضارية . لكننا نتحرك في مجتمع زاخر في تصوراته وسلوكه وعاداته واذواقه بثقافات متنوعة موروثة من ملابسات اجتماعية شتى » .

ونحن بالتأكيد حين نتكلم عن المثقفين العرب وعن دورهم في المرحلة الراهنة ، لانقصد كل الناس ممن وجدنا أن لديهم حظاً كثيراً أو قليلا من الثقافة التلقائية الموروثة والتي تستند إلى خبرات وتجارب انسانية مختزنة في ضمير الشعب ومكتسبة خلال تاريخه الطويل ، وإنما نتحدث عن فئة محدودة من هذا الشعب استطاعت أن تضيف إلى خبراتها التلقائية الموروثة واللاواعية خبرات واعية حصلت عليها عن طريق المعاناة والممارسة والدراسة والتأمل ، وهي لذلك قادرة على أن تعيد النظر في كل ماورثت من مفاهيم وقيم وعادات وتطورات لتشكلها من جديد على ضوء الخبرة الذاتية والحقائق الموضوعية التي لاتفتأ تعيد تشكيل الحياة من حول الانسان .

اذن فنحن نخاطب في هذا الحديث الفئة التي تستطيع أن تشكل وجهة نظر في كل ماتراه حولها ، والتي تستطيع في الوقت نفسه أن تحدد لنفسها موقفاً خاصاً تقفه مما يدور حولها من أحداث ، كل ذلك لابفعل الوراثة اللاواعية ولا بفعل التقاليد المنحدرة من التاريخ ، وانما بتأثير الوعي المتشكل من المعرفة العلمية والادراك القائم على الحقائق الموضوعية ، الامر الذي يرتب على هذه الفئة مسؤولية خاصة تجاه أبناء مجتمعهم وتجاه تاريخ أمتهم .

وعلى هذا تستطيع أن نضيف الى ماذكرناه سابقاً عن الثقافة من أنها تصورات وعادات وقيم وقدرة على التذوق ، إنها أيضاً وعي ومسؤولية ومواقف محددة مختارة وملتزم بها .

وما دام الوعي هو ابن المعرفة ، لذلك فإن الثقافة علم . ومادامت المسؤولية هي وليدة الوعي لذلك فإن الثقافة موقف محدد تحديداً حراً ومسؤولاً بعيداً عن المواريث التاريخية والمفاهيم السلفية والقيم التقليدية .

ولهذا فإن العمل الثقافي يتم بالضرورة عبر صراعات فكرية متصلة ، ومعارك ثقافية متجددة بمقدار ماتتجدد الحياة من حول الانسان ويعاد تشكيلها . ان العمل الثقافي هو بالضرورة عملية هدم وبناء : هدم لما تعفن من القيم وما تخلف من المفاهيم والقواعد السلوكية التي أصبحت تحكم ما جد على الحياة من تطور ، معوقة لحركة التقدم ، وغير متجاوبة مع حاجات الجماعة . وهو بناء لقيم جديدة أكثر تجاوباً مع مستلزمات التطور وأكثر استيعاباً للخبرات الجديدة التي اكتسبها الانسان ، ومايزال يكتسبها كل يوم من خلال نضاله الدائب المستمر .

فالثقافة ليست مجرد تصورات وأفكار وقيم وعادات وأذواق ، تتعالى على حركة التاريخ والمجتمع ، وإنما هي قوة مادية كامنة في هـــذه الحركة ذاتها ، انعكاساً خلاقاً لها ، وفعلا خلاقاً فيها .

وإذا كان كل ماذكرناه حتى الآن كافياً — ولو مؤقتاً — لأن يلقي الضوء على مانقصده بكلمة مثقف فلنحاول بعد ذلك أن نحدد ماذا نعني بكلمة المثقف العربي . وهل لمثل هذه الإضافة على كلمة مثقف دلالة ذات خطر بالنسبة لعمل هذا المثقف وأسلوب تفكيره ؟ .. وهل يمكن أن يكون لذلك أثره في تحديد موقفه وفي تشكيل سلوكه ؟

بل لعلنا نستطيع أن نكون أكثر وضوحاً لو طرحنا السؤال بالطريقة التالية :

هل يمكن أن يكون للثقافة هوية اضافية على هويتها الانسانية ؟ وهل يمكن أن يكون للثقافة أكثر من طابعها الانساني الموحد مادام جوهر الانسان هو واحداً من حيث كونه انساناً يعيش ويفكر ويعمل ويحلم ويتعاطف ويحب ويتطلع إلى حياة أكثر سعادة ، وأشد فعالية ، وأفسح معرفة ، وأرحب حرية وابداعاً وتجدداً .

علماء الفيزياء أو الكيمياء أو الطبيعيات أو الاطباء او غيرهم ، كلهم يفكرون بذات الاسلوب ويعالجون القضايا بذات العقلية ، وغالباً مايتوصلون الى ذات النتائج، ويتخذون نفس المواقف إزاء مايعترضهم من مشكلات ، بغض النظر عن هويتهم القومية او انتمائهم الطبقي مثلا . فهل هنالك مايوجب على المثقف ان يشكل موقفه ورأيه من خلال التزامه القومي او الطبقي خلافاً لما يكون عليه موقف العالم الرياضي او الجيولوجي مثلا ؟

وللإجابة على ذلك لابد من ان نشير الى الطبيعة غير المتجانسة للثقافة سواء في صورتها المتصلة عبر التاريخ البشري، او في صورتها المتحققة في كل مجتمع من المجتمعات .

هذه الطبيعة ذات وجوه ثلاثة ، فهناك :

أولا ثقافة بشرية تعبر عن جوهر الانسان من حيث هو انسان وتتناول ماهو مشترك بين الناس جميعاً ، من مشاعر وعواطف وانفعالات وتطلعات وآمال واحلام وهموم واوهام .

وهناك ثانيا الثقافة القومية وهي خاصة بالامـــة ، تعبر بها عن ملامحها وقسماتها التي تتميز بها عن كل المجتمعات البشرية الاخرى ، وتفصح بها عن اصالتها

المتميزة وعبقريتها الخاصة ، واسلوبها المتفرد في النظر إلى الحياة وفي ممارستها لها ، برغم اختلاف الطبقات الاجتماعية في داخلها ، واحتدام مصالحها في صراعات متنوعة داخل المجتمع الواحد ،

وهناك ثالثاً في قلب هذه الثقافة القومية ، ثقافات متنوعة متناقضة ، متمايزة تتعدد مستوياتها ودلالاتها ، تعبيراً عن الطبقات والمصالح الاجتماعية المختلفة ضمن المجتمع القومي الواحد .

وليست هنالك أسوار صينية بين هذه الجوانب الثلاثة للثقافة ، وكل منها يشكل جزءاً اساسياً وهاماً من البناء الفكري الانساني ، ويتفاعل مع الاجزاء الاخرى وينلمج فيه ، في كيان ثقافي شامل . وكثيراً مايبرز احد الجوانب الاخرى تحت تأثير الضرورات المرحلية التي تمر بها الجماعة .

ونتيجة لذلك فلا بد من الاعتراف بأن هنالك ثقافة عربية واخرى فرنسية وثالثة المانية الخ . بينما لا نستطيع ان نقول ان هناك علماً عربياً وآخر فرنسياً وثالثاً المانياً . وهذا مايعطينا كل الحق بالتالي حين نبحث عن دور المثقف في بلادنا ، ان نحاول منذ البدء ان نحدد لهذا المثقف هويته ، وبالتالي ان نحدد له دوره ضمن حدود مسؤوليته القومية بما لايتعارض مع قيمه كإنسان ، بل بما يعزز هذه القيم ويؤكدها من خلال التزامه القومي .

ومرة ثالثة لابد لي وانا أبحث عن « دور المثقف العربي في المرحلة الراهنة » من أن الجأ الى تحديد طبيعة هذه المرحلة التي تمر بها الامة العربية . اذ أن تحديد هذه الطبيعة شيء هام بالنسبة لتحديد دور كل انسان عربي فيها بما في ذلك المثقف.

لن اضيف شيئاً جديداً الى ماقيل حتى الآن حول طبيعة هذه المرحلة اذا ماقلت : ربما كانت المرحلة التي تمر بها امتنا اليوم هي اخطر ما مر بها خلال

تاريخها الطويل على الاطلاق . وليس من قبيل المبالغات اللفظية او الاستعارات الادبية ان تقول : إن وجودنا كأمة مهدد اليوم تهديداً خطيراً من قبل الصهيونية، مدعومة" بالامبريالية العالمية، وليست مشاكلنا كأمة متخلفة مماثلة لمشكلات الامم الاخرى التي تمر معنا بذات المرحلة الحضارية .

هناك في عالمنا اليوم امم كثيرة متخلفة ، وهي مطالبة بأن تتجاوز مرحلة التخلف بأي ثمن ، حتى تلحق بركب الحضارة الانساني ، وحتى تتيح لكل فرد من افرادها فرصة الحياة الحرة الكريمة ، ولينعم بما ينعم به ابناء الامم المتقدمة من فرص الحياة وطيباتها .

ان على هذه الامم ان تتجاوز مرحلة التخلف بأقصى سرعة ممكنة ان لم يكن ذلك اليوم فغداً .

اما نحن فالأمر لدينا مختلف . ان علينا ان نتجاوز مرحلة التخلف اليوم لا غداً ، فإما اليوم واما ابداً . ذلك لأن الخطر الكبير يقف على الابواب متربصاً فاتحاً شدقيه على مدى الوطن العربي ليبتلعه ، وليدمر كل اثر للحياة العربية من فوقه ، مستبدلاً بذلك كله شعباً آخر وحضارة وحياة آخرين .

فإذا كانت القضية بالنسبة للشعوب والامم المتخلفة الاخرى قضية رفاه ومستوى عيش ودرجة تقدم ، فهي بالنسبة لنا قضية الحياة نفسها وقضية الوجود ذاته .

ان أشد ما يمكن ان يهدد حياة المريض حين يمرض الجسم وتضعف المقاومة، هو ان يصاب في هذه الفترة بالذات بمرض مداهم خطير ، وان يقع في اختلاطات مرضية يصعب عليه ان يتحمل مضاعفاتها وان ينجو من عقابيلها. واذا كان التخلف مرضاً خطيراً في الاصل فإن اضافة الخطر الصهيوني الجاثم عليه قضية تهدد بأوخم العواقب ، ان لم نحسب للأمر حسابه الصحيح والدقيق . وعندما يطير الطيار

على مسافة عشرين او ثلاثين الف قدم من الارض فإنه يستطيع ان يخطىء دون ان تكلفه الخطيئة حياته ، لأن لديه فرصة لكي يصحح خطيئته قبل ان ترتطم طائرته بالارض ، اما عندما يطير على ارتفاع امتار قليلة فإن ادنى خطيئة قد تكلفه كل شيء .

وليس من قبيل الخوف او التشاؤم أن اقول إننا اصبحنا بعد حزيران ١٩٦٧ نطير على مسافة قليلة من الارض ، ولا بد من شد حبال الانتباه والحذر والجد الى اقصى ما تستطيع ان تحتمل تلك الحبال .

اننا بحاجة الى ان نتساءل : ماذا ينقصنا بالدرجة الأولى لكي ننتصر على الهزيمة وعلى التخلف ، لا في العالم الخارجي فقط وانما في داخل انفسنا ؟.. قد نكتشف ، والأمر لايحتاج إلى اكتشاف خطير ، ان هنالك اموراً كثيرة تنقصنا : مصانع ومزارع ومدارس ومعاهد واسلحة وذخائر وقرى ومدن وسدود وطرق .

حقاً هنالك اشياء كثيرة تنقصنا ، ولكن ماذا ينقصنا أولاً لنعرف كيف نبدأ ، ولنعرف من أين نبدأ ؟ في اعتقادي ان ماينقصنا أولاً هو الانسان .

وبالصراحة والجدية التي لابد لنا من ان نواجه بها الحياة منذ الآن ، بل منذ ان كشفت هزيمة حزيران عن كل نواحي الضعف في وجودنا ، ان لم يكن قبل ذلك ،لابد لي من ان أقول : أنه لابد لنا ان نبدأ من هنا ، من إعادة صياغة الانسان العربي وإلا " فلن نصل أبداً .

وما أظن أن هناك وسيلة لإعادة صياغة الانسان غير الثقافة ، ولن يتحقق ذلك إلا بتغيير ثقافي جذري ، بثورة ثقافية .

ان الثقافة هي الصناعة الثقيلة الحقة في المجتمع ، لأنها صناعة الصناعات ، بل هي صناعة صانع الصناعة : الانسان .

إن أعظم اخطاء الثورة العربية حتى الآن في زعمي ، انها لم تول أمر الثقافة من الاهتمام ما أولته للقضايا السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وهذه القضايا على أهميتها البالغة هي في الحساب الأخير متوقفة على نوع الانسان الذي تصنعه الثورة . فإذا لم يكن هذا الانسان في مستوى حمل مسؤوليات الثورة ، ومسؤوليات التطوير والبناء ، ومسؤولية تحقيق النصر على الاعداء ، فإن كل مابنته الثورة العربية في المجالات المختلفة سيتحول إلى جهد ضائع .

وان من أعظم الأخطاء التي وقعنا فيها بعد نكبة حزيران ، هو تأكيدنا على تخلفنا التكنولوجي كسبب للهزيمة ، بينما كان تخلفنا الايديولوجي هو في أصل النكبة وفي اساسها سبباً لايرقى إلى مستواه اي سبب آخر .

فما هو واقع الثقافة في بلادنا ؟ .. وما هي نوعية الانسان العربي الذي سنواجه به تحديات العصر الحضارية ، وتحديات الصهيونية والامبريالية في معركة طويلة ومريرة وشاملة ، كما نصف معركتنا معها دائماً ؟

لابد لنا قبل كل شيء ، ونحن نتحدث عن واقع الثقافة لدينا ، ان نذكر ان ما لايقل عن ٧٠٪ من أبناء امتنا لم يتجاوزوا بعد العتبة الأولى التي تكاد تعزل الملايين من شعوبنا عن ارتقاء بقية عتبات السلم الثقافي ، واعني بها عتبة الأمية .

والأمية في الحقيقة ليست مجرد جهل بحروف الهجاء ، وانما هي تخلف حضاري وثقافي عام يترك الانسان تحت رحمة التجربة التلقائية المباشرة ، والتيارات الدعائية الوافدة ، ويحجب عنه كل جدارات المسؤولية ، وكل امكانات المشاركة . اضافة إلى ان الجهل بمعرفة الحروف الهجائية اضعاف للطاقة الانتاجية وشلل للقدرة المبدعة .

ان جغرافية الامية في العالم متطابقة مع جغرافية الجوع . ولا جدية لأي عمل من

اجل ثورة ثقافية او اجتماعية يغير مواجهة جدية وحاسمة وسريعة لظاهرة الامية هذه.

وهنا لابدّ لي من الإشادة ، بصفتي معنياً بأمور الثقافة لا وزيراً وحسب، بحدثين كبيرين أعتبرهما من الدلالات الهامة في حياة القطر العربي السوري : الأول هو الرعاية الخاصة التي يوليها السيد الرئيس الفريق حافظ الأسد لجميع مؤسسات الثقافة والفن وأهلها . فقد أصدر أكثر من تشريع خلال أقل من سنة، ترمي كلها الى رفع شأن الثقافة وتشجيع المثقفين ، واحترام حرية الكلمة وفسح المجال على أوسع نطاق أمام ازدهار وتفتح الابداع الفكري والفني والقومي .

أما الحدث الثاني فهو صدور قانون الزام محو الأمية منذ حوالي شهر، وهو قانون يمكن اعتباره الأول من نوعه في البلاد العربية كلها ، سواء من حيث طابعه التقدمي او من حيث شموله ودقته . فقد حدد مهلة ست سنوات فقط لتصفية الأمية من القطر العربي السوري . وانطلق القانون من فكرة أن جميع الأميين ملزمون بالتعلم وأن جميع المتعلمين ملزمون بتعليم الأميين دون أجر . ولكنّ بلورة هذه الفكرة ووضع الأطر التنفيذية لها قد تركت الى المجلس الأعلى لمحو الأمية ، وهو السلطة العليا التي ستضع قواعد التطبيق . المهم هو أن هذا القانون حين تطبيقه سيساعد على تصفية الأمية في بلادنا ، كما يساعد على تفجير طاقات المواطنين بصورة واعية ومجدية . انه بداية الثورة الثقافية الحقة .

وما أظن بعد ذلك أن الحديث عن اعادة صياغة الانسان العربي بالثورة الثقافية يمكن ان يستقيم إذا لم نجعل من نظام التعليم العام والتعليم الجامعي منطلقاً لهذه الثورة ، ومرحلة اساسية من مراحل اعادة الصنع .

وقضية التعليم في بلادنا قضية معقدة وشائكة وتحتاج إلى بحث مستفيض. ولكن يمكن أن يقال إن نظام التعليم في بلادنا كما هو عليه اليوم عاجز عن تكوين الانسان الذي نحتاج اليه لتحقيق اهدافنا القومية والانسانية ، بل ربما

كان هذا النظام من الفساد والاضطراب بحيث يساهم إلى حد كبير في تشويه الانسان العربي ، وابعاده عن الدور الذي يضطلع به كمواطن حر مسؤول ، وكإنسان مكتمل .

وبصورة عامة فإن الضعف في نظامنا التعليمي لايتأتى فقط عن ضعف مناهجه واضطرابها وتشتتها ، ولا من كونه تعليماً نظرياً تلقينياً فحسب ، ولا من اعتماده اساساً على المناهج الاجنبية المنسوخة والتي تضيق عن استيعاب حاجاتنا القومية ، وانما أيضاً وفوق كل ذلك من عدم وجود فلسفة تربوية نابعة من فلسفتنا القومية والاجتماعية والانسانية . وما يقال في التعليم العام يقال مثله في التعليم الجامعي الذي يعتمد على ثقافات انتقائية غير متجانسة اكثر مما يعبر عن ثقافة أصيلة خلاّقة تعبر عن واقع الحركة القومية والاجتماعية في بلادنا ، وتتجاوب مع حاجات خطط التنمية وضرورات الصراع المصيري مع الأعداء .

ولا شك ان وضع فلسفة للتعليم العام والجامعي مستمدة من حاجاتنا القومية والاجتماعية ، فضلاً عن مختلف الجهود من أجل محو الأمية ، انما يسهم اسهاماً فعالاً في التغيير الثقافي الجذري في مجتمعنا ، وهو الذي يشكل الأرضية التي لابد منها لاحداث مثل هذه الثورة الثقافية التي يناط بها اعادة صياغة الانسان العربي .

غير ان المهمة الأساسية في مثل هذا التغيير الثقافي الشامل انما تقع بالدرجة الاولى على العمل الثقافي العام في مختلف المجالات الثقافية الاخرى ، مثل الكتاب والسينما والمسرح والفن التشكيلي والموسيقى والتلفزيون والاذاعة والصحافة ، والاتحادات الادبية والثقافية بصورة عامة .

ماهو دور المثقف العربي في احداث مثل هذه الثورة ؟ ..

لاشك ان تحقيق التغيير الثقافي الشامل في سبيل تكوين مواطن عربي

جديد ليس من المهات اليسيرة التي يمكن ان يوكل أمر انجازها الى مجموعة افراد مهما أوتوا من القدرة ، وانما هي مسؤولية المجتمع بكامله ؛ مسؤولية الشعوب والحكومات ، مسؤولية المثقفين والمنظات الشعبية ، مسؤولية الهيئات والاحزاب السياسية .

ولكن دور المثقفين عموماً يأتي في الطليعة بحكم وعيهم ، وبحكم طبيعة عملهم ، وبحكم دورهم التبشيري والتعليمي والقيادي في المجتمع .

وفوق كل ذلك يقع عليهم وحدهم ان يخططوا وان يبلوروا هذه الثقافة التي تكفل إحداث مثل هذا التغيير الضخم الذي نتحدث عنه .

اننا كثيراً ما نتحدث عن اعادة كتابة التاريخ العربي لتنقيته من الشوائب التي علقت به ، سواء عند كتابته في القديم من قبل بعض المؤرخين الشعوبيين ، او عند اعادة النظر فيه من قبل بعض المستشرقين الذين استخدموا البحث والعلم وسيلة لتحقيق اغراض سياسية معينة تتناقض مع مصلحة الامة العربية . فهل فعلنا شيئاً جدياً من أجل ذلك حتى الآن ؟...

وكذلك فإننا كثيراً ما تحدثنا عن انظمة التعليم في بلادنا وعما تنطوي عليه من ثغرات وما يشوبها من نقائص . ولقد دعت وزارة التربية الى مؤتمر عام ١٩٦٧ لإعادة النظر في المناهج التعليمية ، كما دعت الحكومة الحاضرة الى مؤتمر لتطوير التعليم الجامعي ، وآخر لتطوير التعليم ما قبل الجامعي . ولقد انتهى المؤتمران الاول والثاني الى توصيات محددة ، ولا يزال المؤتمر الأخير في طور التحضير . ومع ذلك فإنني مقتنع بأن النتائج لن تأتي بمستوى الحاجة ؛ ذلك لأن مثل هذا الموضوع كان يستدعي إلى جانب أعمال لجان المؤتمر اهتماماً واسعاً من جميع الذين يهتمون بقضية التعليم في بلادنا ، ولديهم من الآراء حولها ما يستحق العرض والمناقشة اغناء لأبحاث المؤتمر ومساعدة لأعضاء اللجان على أداء مهمتهم الشاقة والخطيرة . فأين ما كتب

عن هذين الموضوعين حتى الآن في الصحف والمجلات ؟ بل أين الكتب التي ألفت حول قضايا التعليم عامة في بلادنا منذ الاستقلال الى اليوم ؟

هذان المثلان أضربهما لأخلص الى القول : إننا حتى لو صحت ارادتنا على إحداث تغيير ثقافي شامل وجذري ، ففي أي اتجاه سيقع هذا التغير ... وكيف؟ ماهي المنجزات التي تحققت حتى الآن في هذا المجال؟ وفيما عدا الخطوط العريضة العامة ، فان أحداً لا يستطيع ان يدعي ان لديه صورة محددة ومشخصة عما يجب أن تكون عليه ثقافتنا ، لأن الحديث في هذه المجالات لا يزال يدور في اطار العموميات التي لم تعد تغني شيئاً .

وكثيراً مايعاب على وزارة الثقافة في بلدنا مثلاً أنها تعمد الى الاكثار من الكتب المترجمة التي لاتعبر عن واقعنا ، ولا تلبي حاجات شعبنا ، بينما تهمل نشر الكتب التي تبحث في موضوعات خاصة بنا ، والتي تعالج أهم القضايا التي تطرحها الظروف على امتنا في المرحلة الراهنة .

ولكن ... من أين لوزارة الثقافة مثل هذا الكتاب تنشره اذا كان المؤلف لم يكتبه بعد ؟

ان الدور الذي تلقيه الظروف وتضعه الاقدار على عاتق مثقفينا هام وخطير. وأنا لا أدعي ابـــداً ان الجميع قاموا بواجبـــاتهم ولم يبق إلا ان يقوم المثقف العربي بواجبه ، كما لا ادعي ان السبيل ممهد امام المثقف ليقوم بهذا الدور، تعينه في ذلك الحكومات ، وتساعده في ذلك الهيئات والمنظمات ، ولكنني اؤكد ان هذا الدور جاهز واساسي وحاسم ، وليس له غير المثقف العربي يؤديه وينهض بـه برغم كل الظروف ومن فوق كل العقبات والحواجز ، لا يعينه في ذلك الا ايمانه بحق امته في الحياة العزيزة الكريمة ، ولا يدفعه الى ذلك الا شعوره بالمسؤولية ، مسؤوليته هو بالذات عن اقدار امته في حاضرها ومستقبلها ، طالما اصبح مفتاح مصيرها في يده .

ان هذا التحدي الذي تلقيه الظروف في وجه المثقفين العرب هو المهمة المركزية بالنسبة للمرحلة الراهنة ، هو القضية التي يجب ان توضع في طليعة الاهداف الاستراتيجية للأمة العربية وصولاً إلى اهدافها الاخرى .

أنّ نكوّن ثقافة تكون استيعاباً حياً لكنوز الخبرة البشرية ، وارتباطاً واعياً بجذورنا التاريخية القومية ، ووضوحاً موضوعياً بحقائق الحياة من حولنا ، وارتفاعاً بفكرنا ووجداننا وذوقنا وسلوكنا وعاداتنا الى مستوى الابداع الرفيع والمسؤولية الجادة .

وان نتخلص من الثقافة التي لا تنطوي إلا على الشعارات الجوفاء ، نغذي بها عواطفنا ، والا على المزاعم والاساطير نرضي بها أوهامنا ، والا على التصورات والقيم والعادات والاذواق الرجعية ، تتنفس في حياتنا الجديدة وتفسد علينا امرنا وتحبط مساعينا وتقيم من حولنا مجتمعاً خليطاً مشتتاً يستند الى تصورات ومفاهيم متنافرة متناقضة تمزق وجودنا القومي وتجزىء مجتمعنا الواحد .

ذلك هو الدور الذي ينتظر المثقفين العرب ان يلعبوه بجدارة وشجاعة وصبر وايمان .

أما ما هو كنه هذه الثقافة ، ما هو مضمونها وما هو شكلها ، وكيف السبيل الى خلقها والتبشير بها ونشرها ، فهذا موضوع يستحق مساهمة المثقفين العرب على اوسع نطاق ومساهمة المؤسسات الثقافية في الوطن العربي كله ، وإن كنت قد اشرت سابقاً وبكلمات محدودة الى رأي سريع في هذا المجال .

المجتمع العربي أمام النظرة المستقبلية

د. عبد الله عبد الدايم

ليس النجح الكبير في تطور الانسان أنه جعل الكون ذلولا ، أرضه وسماءه ، بحره وهواءه ، كوكبه وقمره . ولا النجح الاكبر أنه صيّر الآلة مارداً في يد الانسان ، يزوده بالقوة والقدرة ، ويزيد طاقته أضعافاً مضاعفة ، ويمد في أثره وتأثيره دون ما حد ، ويكاد يجيل شأنه في السيطرة على العالم كيد ساحر أو معجزة نبي .

النجح الكبير وراء هذا كله وفوق هذا كله . ان لم ندركه لم ندرك روح الحضارة الحديثة ومصدر قوتها وقدرتها على تجاوز ذاتها ، وان لم نعه لم نع ماعساها تقدم لنا من مفاجآت ووعود ، وما قد تحمل به في مقبلات الايام .

ولنقل منذ البداية موجزين : انه سعي الانسان للسيطرة على المستقبل .

أجل ذلكم هو البعد الجديد الذي بدت ملامحه في الافق ، حاملا معه ضياء جديداً ، محملا بوعود ورعود لاحد لها .

في اطار هذا المسعى الجديد ، مسعى السيطرة على المستقبل ، لم يعد هم الانسان أن يسيطر على الكون والاشياء فحسب ، بل غدا همه وهاجسه أن يمسك بزمام المستقبل ، أن يصنع مستقبله بيديه ، أن يبتكر مستقبله كما يقال (To invent the future) ، أن يكون له في صناعة غده نصيب ، وفي بناء أيامه المقبلة شأن . انه يريد أن يجعل المستقبل طائعاً ذلولا ، كما جعل الارض والكون مسخرين لمشيئته .

لم تعد المسألة عنده أن تقذف لنا الحضارة بمبدعاتها ومكتشفاتها عفو الخاطر ، وان يتقدم ركب الانسانية من خلال مسيرة لايدري الانسان مصيرها ومستقرها . ولم يعد مقبولا عنده أن يكون المستقبل ، مستقبل الانسانية ، ذلك المجهول الذي نتركه لتطور الأزمان وتقلب الحدثان ، ولا هو يرضى أن يكون الغد مركباً مفاجئاً من عوامل وعناصر لايدري كيف تتشكل وكيف تشكل معها حياة انسان الغداة . وهيهات أن يتأسى بقول الشاعر الجاهلي :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم مافي غد عم

مطامحه في هذا الثلث الاخير من القرن العشرين أن يمتد ببصره وبصيرته الى ما يتجاوز الحاضر الذي يحياه والمستقبل القريب الذي يقبل عليه ، أن يرنو الى مشارف القرن المقبل ، يتبين فيه المسير والمصير ، ليختار أفضله ويجتنب سيئه .

وليس ما يطمح اليه ههنا شعر شاعر او نبوءة عرّاف ساحر أو تأملات فيلسوف . ولا هو مجرد اطلالة فكرية عبر الزمان يبني من خلالها رؤى المستقبل ويرسم صورته المرجوة . وما الامر عنده أن يبني من بنات أفكاره مدينة فاضلة

أو جمهورية افلاطونية . مطمحه وأمله أن يتنبأ بالمستقبل تنبوأ علمياً وأن يرسم صورة المستقبل عن طريق العلم .

فما هي قصة هذه النبوءة العلمية ؟ وكيف تأتّى ان يكون بين العلم والنبوءة قربى ووشائج ؟

علم المستقبل :

منذ سنوات ليست بعيدة ، تعود الى اواخر العقد السابق ، ولد علم قائم بذاته دعي علم المستقبل . وقامت دراسات مغذة في سيرها ، اطلق عليها المفكر الفرنسي « جاستون برجيه Gaston Berger » في مقال كتبه عام ١٩٥٧ في « مجلة العالمين » اسم « التحسب prospective » . واخذ هذا العلم يتطور وينمو ، حتى غدت له مؤسساته وتقنياته وقواعده . وتكاثرت الجمعيات والمعاهد والمجلات والكتب التي تعنى بعلم المستقبل وبالدراسات المستقبلية . وغدت هذه المحاولة يوماً بعد يوم منهجاً شائعاً في شتى ميادين الحياة ، تصطنعه اكثر الدراسات التي تعالج مشكلات الاقتصاد والثقافة او التربية او علم الاجتماع او علم البيولوجيا او سواها . وكونت دول كثيرة جماعات ولجاناً خاصة ، باسم جماعات العام ٢٠٠٠ او جماعات الدراسة التحسبية او جماعات المستقبل او سوى ذلك من الاسماء . واوكلت اليها امر التخطيط للمستقبل في شتى مجالات الحياة ، واتخذت من دراستها اساساً لسياستها في مختلف الميادين .

ذلك ان هـــذا العلم الناشىء ، علم المستقبل ، اكد عدداً من الحقائق ، احدثت تغييراً اساسياً ، بل انقلاباً في سياسة الدول وفي نظرتها الى بناء حاضرها ومستقبلها . ويمكن ايجاز تلك الحقائق في الامور التالية :

أولا : ثمة طرائق وتقنيات علمية ولّدها ذلك العلم ، غدت قادرة الى حد بعيد على التنبؤ العلمي بالمستقبل . ونعني بها تلك الطرائق والتقنيات التي تعرف أحياناً باسم « طرائق التنبؤ التكنولوجي Technological forecasting » . وهي طرائق تسمح لنا بأن نعرف ما يمكن أن تكون عليه صورة العالم ، في شتى ميادين الحياة ، بعد عدد بعيد من السنوات . انها تبين لنا ، وفق أساليب علمية متطورة ، ما ينتظر أن تصل اليه المكتشفات العلمية والتقدم العلمي عبر العقود القادمة من السنين ، في كل مجال من مجالات الحياة الانسانية ، في الطب وعلم الحياة وعلم النسل والكيمياء والفيزياء والذرة والفضاء والمواصلات ، بل في الثقافة والتربية والاقتصاد والاجتماع والسياسة وسواها ...

ولا يسمح المقام بالحديث عن تلك التقنيات وتطورها ووعودها وحدودها. وحسبنا أن نقول إنها تقنيات ولدت في دنيا الحرب والصناعة أولاً ثم امتدت الى شتى الميادين ، وانها تستهدف ان تقدم لنا « تاريخ الغد » كما يقال ، لا تاريخ الامس ، وان ترينا ذلك التاريخ في مسيرته وتطوره وابعاده . وجوهر تلك التقنيات انها تقدم صورة الغد عن طريق تقري الابحاث والدراسات والاتجاهات العلمية في شتى ميادين المعرفة خلال عدد من السنوات الماضية وخلال الطور الراهن . ومثل هذا التقري للاتجاهات الماضية والحاضرة يسمح لها الى حد بعيد بقراءة ما ستصير اليه تلك الاتجاهات في المستقبل وما ستنتهي اليه من ثمرات خلال مسيرتها في العقود القادمة .

ولنقل بايجاز ان قوام هذه التقنيات أن تمد الماضي والحاضر الى المستقبل ، وان تقوم بما يشبه عملية المدّ Extrapolation التي يحدثنا عنها الاحصائيون . وهكذا تسمح لنا تلك التقنيات ان نتخيل عالمنا المقبل في شتى مجالاته وميادينه ،

فيما لو كان ذلك العالم المقبل امتداداً للجهود والدراسات والابحاث التي جرت في الماضي وتجري في الحاضر . ولا شك ان اهم ما ساعـــد على توليد تلك التقنيات وتطورها ، تقدم العقول الالكترونية ، جيلاً بعد جيل ، وبلوغها اليوم ، في جيلها الرابـع ، قدراً من التطور يجعل منها أداة رائعة من ادوات التنبؤ والتحسب .

ويضاف الى تقدم قدرة العقول الالكترونية ، ظهور تقنيات تنبؤية ، تستخدم في الحرب كما تستخدم في الصناعة وادارة الاعمـال ، وقد امتد استخدامها الى شتى ميادين النشاط الانساني ، بما في ذلك الثقافة والتربية . ومثل هذه التقنيات هي التي استخدمت في هبوط الانسان على سطح القمر .

ثانيا : على ان هذه الدراسات التحسبية المستقبلية لا تقف عند هذا الحد ، حد التنبؤ بصورة المستقبل ، على ضوء اتجاهات الماضي والحاضر . فليس همها ان ترينا صورة الغد فيما لو كان ذلك الغد مجرد امتداد للماضي والحاضر . ولا يرضيها ان تتنبأ فحسب ، بل يعنيها ان تؤثر وتفعل . والنبوءة عندها وسيلة للتأثير والتغيير وليست امراً مقصوداً لذاته ، انها تنطلق من رسم صورة المستقبل المتوقع المنتظر ، الذي تومىء اليه الدراسات والابحاث القائمة وتدل عليه الاتجاهات والجهود العلمية السائدة ، لتجعلنا اقدر على تأمل المستقبل والتفكير فيه ، وأقدر بالتالي على بنائه والسيطرة عليه .

انها تطلعنا على ملامح مستقبلنا الممكن الذي تدل عليه جهودنا الآنيـة ، لنضعه بعد ذلك موضع البحث والتساؤل والتشريح والتجريح ، لنقبـل ما نقبل منـــه ونرفض ما نرفض ، ولنقوم بعد هـذا بصياغته منـذ الآن على نحو مانرجو ونريد .

انها تطرح امامنا الصورة المتوقعة لمستقبل الانسانية في شتى المجالات ،

لتقرنها بالصورة الموجودة ، ولتجعلنا بالتالي قادرين على تغيير الصورة المتوقعة في اتجاه الصورة المنشودة .

وبذلك تصل مبتغاها وغايتها ، نعني أن تمدّنا بالاسس العلمية التي تمكننا من أن نصنع مستقبلنا بايدينا ونصوغ غدنا بأنفسنا ونمسك بزمام حضارتنا المقبلة ، لنجعلها جديرة بالانسان ومطالبه .

لقد تحدث الكثيرون منذ سنوات بعيدة عن المشكلات والمآسي التي تولدها الحضارة الحديثة . وأشار من أشار الى الفراق بين كثير من مظاهر هذه الحضارة وبين مايرجى لسعادة الانسان كانسان. وغلا آخرون فنهبوا مذاهب شتى في تجريح الحضارة الحديثة وفي الحديث عن استعبادها للانسان ، بدلاً من ان تكون في خدمته ومن أجله .

ولكن هؤلاء وأولئك ما كانوا يملكون من قوة التأثير في مجرى تلك الحضارة ، سوى ما يمكن ان تتركه الافكار والانظار والتمنيات من مواقف نفسية قليلة التأثير ومن منازع وصبوات مجللة بالغموض حيناً وباليأس أحياناً .

وكثيراً ماقال قائلهم ان الحضارة التي نحياها ، تخضع في تشكلها وتطورها للصدفة أكثر مما تخضع لارادة انسانية موجهة . وكثيراً مازعموا أنها قد تكون مجرد افراز اعتباطي أفرزته عقول قلة من المكتشفين والمخترعين ، دون أن يكون مفصلا في الاصل على قد مطالب الانسان البيولوجية والنفسية ، ودون ان يكون فيها قصد بيّن ، يستهدف الحضارة الجديرة بالانسان وسعادته .

وبلغت هذه الاتجاهات مبلغها في فلسفات الرفض الحديثة ، التي تتجلى في أقلام الكتاب وحركات الشبيبة وسواها ، والتي يثوي وراءها جميعها هذا الشعور

بافلاس الحضارة الحديثة ، وبعجزها عن أن تقدم للانسان موطئاً لسعادة حقيقية . أفلا تقرر هذه الفلسفات فيما تقرر أن الحضارة الحديثة جعلت الانسان اكثر قوة واكبر تأثيراً غير أنها عجزت عن أن تجعله أكثر سعادة ؟ أفلا تتهمها بأنها حضارة قوامها في النهاية التسلط والكبت ، أي ماهو في الاصل ضد الانسان وحريته وميوله ورغباته ؟

وتأتي الدراسات التحسبية المستقبلية لتلقي ضوءاً جديداً وفعالاً على هذه المسألة ، ولتضع بين أيدينا ــ وهذا هو الاهم ــ سلاحاً لمعالجتها :

فصورة المستقبل كما تكشف عنها تلك الدراسات التحسبية ، ترينا وجه حضارتنا الحاضرة بالمجهر ان صح التعبير . انها تطلعنا على تطور ملامحها وقسماتها في المستقبل ، فتجعلنا أقدر على الحكم لها أو عليها . انها تكشف من جهة عما يرجى أن تحققه هذه الحضارة في المستقبل من مكتشفات علمية ، تقنية هائلة ، وعما تيسره للانسان من قوى وطاقات جديدة ، كما تكشف من جهة ثانية عما سيتوالد خلال ذلك كله من مشكلات ومعضلات انسانية ، بعضها امتداد للمشكلات الراهنة واتساع في حجمها ، وبعضها وليد التقدم العلمي الآتي وما يقذف به من مشكلات مستحدثة لاعهد للانسان بها من قبل .

وهكذا تضعنا أمام قدرنا ومصيرنا ، لنتأمل هذا القدر والمصير ، لنرى الصورة ، إن قبلنا أن يكون المستقبل امتداداً للماضي والحاضر ، ولنغير الصورة الموجودة ونصوغها صياغة جديدة ان لم نقبل ذلك ، وآلينا ان يكون لنا في بناء حضارة الانسان دور ونصيب .

انها ترينا ،من جانب،روعة المكتشفات العلمية الآتية . ترينا ماينتظر أن

يظهر في عالم الذرة وعالم النسل والبيولوجيا وعالم الكيمياء وعالم المواصلات وسواها من العوالم .

ولكنها ترينا في الوقت نفسه ، من جانب آخر ، ضخامة المشكلات التي ستواجه الشباب وحياتهم النفسية وضخامة المشكلات الخلقية والنفسية والسياسية التي سيطرحها ذلك العالم المتقدم المخيف .

انها ترينا مثلا ماينتظر في عالم النسل والبيولوجيا من مكتشفات رائعة مذهلة : سيطرة على كثير من الامراض كأمراض القلب وسواها ـ معالجة حاسمة لامراض السرطان ـ تغلب على أمراض الشيخوخة ـ إطالة عمر الانسان ـ اعادة فبركة الانسان عن طريق الاحشاء الصنعية ـ التغلب على مقاومة الجسم لزرع أنسجة غريبة عنه ـ امكان استخدام أجهزة الكترونية تستطيع ان تحل محل حواس السمع جميعها بما في ذلك حاسة الرؤية واللمس ـ الخ . . .

لكنها ترينا في الوقت نفسه أصداء هذه المكتشفات ونتائجها ومايمكن أن تطرحه من مشكلات محدثة ومعقدة :

السيطرة على الدماغ والفكر والذاكرة عن طريق بعض المؤثرات الكيمياوية ـ الوصول الى اكتشاف نوع من « ماحيات الذكريات » ـ خلق بيئة نفسية موجهة في بداية ولادة الانسان ، في وسعها أن تكوّن افراداً ذوي دماغ قليل التطور وآخرين متفوقين ،وأن تؤدي بالتالي الى خلق طبقتين من البشر ، طبقة الأسياد وطبقة العبيد ـ تحديد صفات المولود مسبقاً ، بحيث تختار الأم وليدها سلفاً على نحو ما تريد له من صفات جسدية ونفسية ، عن طريق علبة يقيم فيها جنين في حال التجمد عمره يوم واحد ، كتبت عليها صفات شعره وعينيه

وطول جسمه المحتمل وذكائه المنتظر ـ اكتشاف حقنة تحت الجلد يمكن أن تجعل المرأة عقيماً في الأصل طوال حياتها ، وولوداً حينما تريد ـ هذا اذا لم نشر الى دعاوي بعض الأبحاث الجادة التي تقوم حول تكوين خلية حية في المختبر والى امتلاك القدرة على ايجاد الحياة بالتالي .

وأوضح أن مثل هذه المكتشفات سوف تطرح من المشكلات بمقدار ما تقدم من عون . وهي تطرح كما نرى مشكلات محدثة لاعهد للانسان بها . وحسبنا أن نتخيل طبيعة المشكلات الخلقية والفلسفية والسياسية التي يؤدي اليها بلوغ الانسان مرحلة سيطرة العقل الانساني على العقل الانساني ، حين يغدو هذا العقل قادراً على التحكم في تكوين عقل الاخرين . حسبنا أن نتساءل اذ ذاك : من الذي يقود ويوجه في مثل هذه الحال موجه العقول وصانعها ؟ حسبنا أن نتصور المشكلات القانونية والخلقية والنفسية التي تطرحها إعادة فبركة الانسان وتبديل اعضائه تبديلا قد يصل الى حد تبديل الرأس كله . حسبنا أن نمر بخيالنا على النتائج الاجتماعية والخلقية لسيطرة الانسان على النسل ، تحديداً له في الكم والكيف معاً. وتقوم اليوم دراسات واسعة وجادة لطرح مثل هذه المشكلات التي يطرحها تقدم علم النسل أو سواه في المستقبل ، والتبصر بالحلول التي يمكن أن تقدم لها .

وليس هدفنا ههنا ان نتحدث عن نتائج الدراسات التحسية المستقبلية وما كشفت عنه من صور التقدم الانساني في شتى العلوم وفي مختلف ميادين الحياة. وجل ما أردنا أن ندرك بوضوح اكبر ما عنيناه حين قلنا ان هذه الدراسات المستقبلية والتحسية ترينا حضارتنا القائمة وقد امتدت الى المستقبل ، وتطلعنا بذلك على وعودها وحدودها ، على آمالها ومشكلاتها ، وتجعلنا وجهاً لوجه امام

مسؤولياتنا . انها تحفزنا كما نرى الى تأمل صورة المستقبل الممكنة فتدفعنا بالتالي الى البحث عن وسائل تغييرها وتطويرها، بحيث نحيلها الى الصورة المرجوة، وبحيث نجنبها الآفات والثغرات والمشكلات ما وسعنا ذلك .

ثالثاً : ولا تكتفي الدراسات التحسبية المستقبلية بهذا القدر ، بل تخطو خطوة ثالثة هامة ، حين لا يشفيها ان تطرح امامنا تلك الصور الشتيت لما سيصيبه الانسان من تقدم في شتى ميادين العلوم وفي شتى جوانب الحياة ، بل تجاوز ذلك الى ان تقدم لنا صورة أكمل واشمل لطبيعة الحضارة الانسانية المرجوة في جملتها ، وخصائصها المميزة في العقود المقبلة وما بعدها .

ومثل هـــذه الصورة الكلية الاجمالية التي نطلع من خلالها على طبيعة الحضارة الانسانية الموعودة وعلى مقوماتها ، هامة من ناحيتين :

الناحية الاولى تتصل بالأمر الذي سبق ان اشرنا اليه ، نعني امكان السيطرة على هذه الحضارة الموعودة وعلى مقوماتها الأساسية منذ الآن وتوجيهها لصالح الانسان .

والناحية الثانية تتصل بالدروس التي يمكن ان تستقيها الدول النامية كبلادنا من تأمل تلك الصورة المتوقعة للحضارة الحديثة . وهـــذه الناحية الثانية هي جوهر حديثنا .

وقبل ان نمضي في تحليل هذه الناحية الثانية، وقبل ان نتوقف عند الدروس التي تقدمها الدراسات المستقبلية لبلادنا ، لابد ان نرى اولا ما هي تلك الصورة الكلية الاجمالية للحضارة الانسانية المنتظرة كما تكشف عنها الدراسات التحسبية المستقبلية ، وما هي خصائصها ومقوماتها .

الثورة العلمية والتقنية :

منذ سنوات ليست بعيدة، نسمع ونقرأ جميعاً عن الثورة العلمية والتقنية، تلك الثورة التي بدأت تباشيرها منذ العقدين الأخيرين خاصة ، والتي يرجى لها أن تمتد وتتعمق وتتكامل بحيث تغدو في نهاية الأمر ثورة العصر والطابع المميز له .

هذه الثورة العلمية والتقنية هي التي بدأت تسم الحضارة الحديثة منذ اليوم وهي التي سيشتد عودها وتسيطر ملامحها وطبيعتها على طبيعة الحضارة الانسانية في العقود القادمة ، كما تدل الدراسات المستقبلية .

ومن أهم خصائص تلك الثورة أنها مرشحة لخلق حضارة جديدة ، مختلفة جذريا في طبيعتها وبنيتها وأهدافها عن الحضارة الانسانية التي ألفنا وعرفنا حتى اليوم . بل لعلها زعيم ، كما تقول الدراسات التحسبية ، بأن تلد حضارة جديدة مختلفة في النوع لا في الدرجة عن حضارتنا الحالية .

ويطول بنا الحديث إن نحن اردنا ان نبين خصائص تلك الثورة العلمية التقنية وآثارها ، وان نحن توقفنا عند ملامح ذلك المجتمع الجديد الذي يرجى ان ينبثق من تلك الثورة ، نعني ما عرف باسم « مجتمع ما بعد الصناعة Société Post - industrielle . وحسبنا ان نشير عابرين ، وفي حدود ما يعنينا في هذا الحديث ، عن بعض تلك الخصائص والملامح .

١ ـ الثورة العلمية والتقنية التي ذر قرنها في السنوات الأخيرة ، والتي يرجى لها أن تغير طبيعة الحضارة الحديثة وأسسها ، تأتي كبديل ، بل كظاهرة مناقضة للثورة الصناعية الاولى التي عرفناها حتى السنوات الاخيرة . ولهذا يطلق عليها أحياناً اسم الثورة الصناعية الثانية . انها ليست تتمة لها وإن انبثقت عنها ، بل هي نقيضها الى حد بعيد ، لاسيما في آثارها الاقتصادية والاجتماعية والانسانية .

الثورة الصناعية الاولى ، كما نعلم ، ثورة ولدت منذ حوالي قرنين . وهي، ثورة تعتمد على الانتـــاج الصناعي الكبير . والاصل فيها استخدام الآلات مع تشكيلة من العمال تلائم تلك الآلات . ويمكن وصفها بأنها منظومة من الآلات تستخدم كتلة من اليد العاملة . والهام في الأمر أن دور كتلة العمال هـذه ــ في تلك الثورة ــ دور اجرائي تنفيذي خالص ، لايعدو ضبط الآلة واحكام سيرها .

وبهذا المعنى نستطيع أن نقول إن الثورة الصناعية الاولى حررت عمليـة الانتاج من ظروف العمل الفردي التي كانت سائدة قبلها في مرحلة الانتاج الحرفي، وانها قضت على الوحدة الذاتية الاولى للانتاج ، نعني المنتج ، وأحلت محلها وحدة موضوعية لنظام الآلات ، ذلك النظام الذي يخضع له ما يصح أن ندعوه باسم « العامل الجماعي » .

وهكذا غدا العامل في اطار تلك الثورة الصناعية الاولى تابعاً للآلة ملحقاً بها ، بل عجلة من عجلاتها . وولدت نتيجة لذلك تلك المشكلات الصعبـة ، التي عرفت باسم المشكلات الانسانية في الصناعة ، والتي ولدت بدورها كثيراً من المذاهب الفكرية والعقائد الحديثة .

٢ ــ ثم كانت الانطلاقة العنيفة للعلم والتقنيـــة ، ولا سيا في العقود الاخيرة ، فاذا بتلك الانطلاقة تأخـــذ شيئاً بعد شيء بتحطيم اطار تلك الثورة الصناعيـة وما ينجم عنها من علاقات الانتاج ، لتقيم مكانها بنية جديدة للانتـاج وديناميكية جديدة للقوى المنتجة :

ذلك أن وسائل العمل والانتاج بدأت تتغير ، لتجاوز حدود الآلات الميكانيكية التي عرفتها الثورة الصناعية الاولى ، ولتأخذ شكل الاوتوماتية والتحرك

الذاتي والسبرانية Cybernetique ، ولتصبح بالتالي قادرة على الاضطلاع بوظائف مستقلة ، مستقلة عن العمال والمنتجين ، تجعل منها مركبات للانتاج مستقلة .

ثم ان موضوعات العمل والانتاج ومواد العمل والانتاج تغيرت وتعددت أيضاً في إطار هذه الثورة الجديدة ، فلم تعد مقتصرة على المواد التي تقدمها لنا الطبيعة ، بل تجاوزتها فابتكرت منتجات صنعية لاحصر لها ، ولا سيما بعد النمو الهائل للصناعات الكيماوية ، تلك الصناعات التي حررت الانسان من المواد الأولية الموجودة في الطبيعة ومن خصائصها الثابتة ، على نحو ما نرى في انتاج المواد الصنعية التركيبية والمواد البلاستيكية والصناعات البتروكيماوية وسواها .

وبالاضافة الى ذلك تغيرت قوى الانتاج بفضل تلك الثورة العلمية والتقنية ، ودخلت في الميدان قوى انتاجية ، ومصادر طاقة جديدة ، كالطاقة الكهربائية والالكترونية والنووية . ولعل أبرز القوى الانتاجية الجديدة التي بدأت تلعب دوراً أساسياً بفضل هذه الثورة ، القوى الناجمة عن استخدام الأبحاث العلمية من جهة ، والتقنيات الادارية والتنظيمية من جهة ثانية . فالابحاث العلمية التي تقوم قبل مرحلة الانتاج والتي تساعد على توليد طاقات انتاجية جديدة ومواد جديدة ومنتجات مبتكرة جديدة ، تغدو يوماً بعد يوم عنصراً أساسياً من عناصر زيادة الانتاج . والتنظيم العقلاني للانتاج والدراسة المسبقة للخطوات التي ستمر بها عملية الانتاج وكل ما يتصل بفن ادارة الانتاج وتسييره Management غدت كذلك عنصراً رئيساً من عناصر زيادة فعالية الانتاج ، ومن عناصر الاستخدام الأمثل للموارد المادية والبشرية والمالية التي تدخل في عملية الانتاج .

وهكذا أصبح التركيز في عملية الانتاج يشتد على تلك المرحلة التي بدأت

تعرف باسم المرحلة السابقة على الانتاج Pré - production ، وأصبح الجهد الأساسي الذي يبذل منصباً على هذه المرحلة لا على مرحلة الانتاج المباشر التي بدأ دور الانسان فيها يضمحل ويتناقص . ومعنى هذا أن أهم ما في عملية الانتاج أخذ يرتد يوماً بعد يوم الى ما يلعبه البحث العلمي والتقنيات التنظيمية من دور حاسم في تطوير الانتاج وتجديده كما و كيفا . ومعنى هذا أيضاً أن دور العلماء الباحثين والاداريين والمنظمين للانتاج والمسيرين له ، أخذ يغدو الدور الأساسي البارز الذي تتضاءل امامه سائر الادوار .

ومن هذا كله حدث في نهاية الأمر تطور أساسي في قوى الانتاج وفي مكانة الانسان بين تلك القوى . فانتشار التقنية والاتوماتية يؤدي يوماً بعد يوم الى حذف القوى الجسدية والفكرية المحدودة للانسان ، ويجعل من هذا الانسان شيئاً على هامش عملية الانتاج المباشر ، ما دام اساس الانتاج الاوتوماتي والسبراني ليس آلة معزولة ، بل عملية انتاج آلي لاتنقطع تتحرك بقوتها الذاتية وبانعكاساتها الداخلية . أما دور الانسان الفعال فأخذ ينتقل من عملية الانتاج المباشر التي انتزعتها الاوتوماتية منه وحررته منها ، الى دور الانتاج غير المباشر ، الى المرحلة السابقة على الانتاج التي أشرنا اليها ، مرحلة البحث العلمي والتنظيم العقلاني للانتاج .

وهكذا تتجه أتوماتية الثورة العلمية والتقنية الى الاستغناء عن قوى الانسان البسيطة ، قواه الجسدية ، تلك القوى التي لم تعد قادرة على أن تنافس الآلة والمركبات التقنية للانتاج . وأخذ دور الانسان يرقى في مقابل ذلك الى المجالات التي يتفوق فيها حقاً على الآلة مهما تعقدت وبزها فيها مهما سمت ؛ نعني مجالات الفكر المبدع وما يولده من مبتكرات علمية ومن فنون تنظيمية . وهكذا يهجر الانسان الأعمال التي يستطيع أن يوكلها الى مخلوقاته . وبمقدار ما يهجر تلك

الاعمال الآلية تنفتح أمامه ميادين من الابداع والخلق والتجديد ما كان ليستطع بلوغها لولا تحرره من ذلك العبء الآلي اللا انساني . ولا غرابة بعد هذا ان تنبأ المتنبئون بأن نصيب الطاقة البشرية المبذولة في الانتاج المباشر (لا في الانتاج غير المباشر أو في المرحلة السابقة على الانتاج) سوف يقل في العقود القادمة عن ١ ٪ من مجموع مصادر الطاقة التقنية المبذولة في الإنتاج . ولا غرابة ان سمعنا اقتصادياً كالفرنسي فوراستيه Fourastié يقول دون ماغمغمة في كتابه عن « أمل القرن العشرين الكبير » : لن يكون شيء أبعد عن الصناعة كالثورة التي ولدت من الصناعة .

وواضح من خلال هذا العرض السريع ما تؤدي هذه التغيرات الكبرى التي تحدثها الثورة العلمية والتقنية في وسائل الانتاج وموضوعات الانتاج وقوى الانتاج ، من تغيرات اساسية في علاقات الانتاج ، وفي دور العمال المنتجين . ولا يتسع المجال للحديث عن هذه التغيرات الجذرية التي بدأت تحدث في علاقات الانتاج وفي آثارها الاجتماعية وفي انعكاساتها على المذاهب والنظريات والعقائد . وكلنا يعلم أن هذه التغيرات غدت موضوع بحث ودراسة من اصحاب المذاهب الاجتماعية ، وأنها تؤدي يوماً بعد يوم الى مراجعة جديدة للمذاهب الاقتصادية والاجتماعية المعروفة ، سواء كانت ماركسية أو رأسمالية. ولعلها تضع الماركسية خاصة أمام منعطف جديد بدأنا نقرأ عنه الكثير في كتابات كثير من المفكرين الماركسيين وسواهم. وان نذكر دراسات «روجيه غارودي Roger Garaudy» ، التي أثارت جدلاً طويلا وكانت من اسباب فصله من الحزب الشيوعي الفرنسي ، والدراسات التي قام بها مجموعة من الفلاسفة والمفكرين في تشكوسلوفاكيا قبل ربيع براغ Prague ، وعلى رأسهم رادوفان ريشتا Radovan richta ،

بتكليف من الحزب الشيوعي التشيكي . وهذه الدراسات وسواها إن دلت على شيء فانما تدل على شعور المذاهب والعقائد الاجتماعية بالحاجة الى المراجعة والتحديث نتيجة لتلك التغيرات الكبرى في وسائل الانتاج وبنيته ، تلك التغيرات التي غدت تستلزم أن تتم الثورة الاجتماعية العقائدية بالعلم Par la science بعد أن كانت تتم مع العلم Avec la science على حد تعبير « روجيه غارودي » في كتابه الشهير « منعطف الاشتراكية الكبير » .

ولكن لندع هذا كله ـ فالحديث عنه يطول ويملأ الصفحات بل الأسفار ـ ولنعد الى قصدنا الاصلي ، حين عزمنا على الحديث عن بعض معالم الثورة العلمية والتقنية :

لقد قلنا ان هذه الثورة العلمية والتقنية التي بدأت تباشيرها منذ العقدين الأخيرين ، والتي اخذ عودها يشتد ويمتد ، هي المرشحة لأن تكون ثورة العقود المقبلة من هذا القرن وثورة بداية القرن الحادي والعشرين ، وأن طابعها هو الذي سوف يسم الحضارة الحديثة في مقبلات أيامها .

وهذا القول ـ كما سبق أن ذكرنا ـ يحمل في رأينا بنتيجتين هامتين . أولاهما تتصل بدور الدراسات المستقبلية تجاه هذا المولود الجديد الذي سيترعرع في السنين المقبلة . ونقصد بذلك الدور : كيف يستطيع علم المستقبل أن يحتوي هذه الثورة، وأن يكشف عن نتائجها وآثارها في شتى ميادين الحياة، وكيف يستطيع أن يصوغ صورة المستقبل بعد ذلك صياغة افضل في ضوء تلك الثورة وفي ضوء نتائجها وآثارها . وهذا كما رأينا منذ البداية احد اهداف الدراسات المستقبلية التحسبية بل اهم تلك الاهداف . فغاية المطاف عندها ان تستطيع ان تسيطر على مسيرة المستقبل المنتظرة لتحلها الى صورة موجزة افضل .

على ان الذي يعنينا الآن من نتائج حديثنا عن الثورة العلمية والتقنيـــة وامتدادها في المستقبل ، هو النتيجة الثانية المتصلة بموقف الدول النامية ، وعلى رأسها البلاد العربية من هذا الحدث الحاضر ومن أبعاده المنتظرة في المستقبل .

الدراسات المستقبلية والدول النامية :

ويزيد من أهمية هذا الموضوع الاخير ، ان الدراسات التحسبية المستقبلية تخبرنا فيما تخبرنا عن بعض نبوءاتها حول موقع الدول المختلفة في العـــالم ومدى قربها او بعدها في العقود المقبلة عن تلك الحضارة الحديثة التي ستولدها الثورة العلمية والتقنية .

انها تحاول - مخطئة أو مصيبة - ان تضع تصنيفاً لدول العالم في أواخر هذا القرن ، تبعا للمستوى الذي ستبلغه كل منها بالقياس الى الثورة العلمية التقنية . وتقول بعض هذه الدراسات - موضوعيـــة كانت او مغرضة - ان بعض الدول القليلة سوف تكون في نهاية هذا القرن بين مجتمعات ما بعد الصناعـــة ، وتشير باصبعها خاصة الى الولايات المتحدة والسويد وكندا واليابان . وتحدد لنا صفات تلك المجتمعات من حيث متوسط الدخل القومي للفرد الواحد ومن حيث مستوى التعليم وسواه ، مما لا يتسع له الحديث . وتشير فيما تشير الى دول اخرى تتنبأ لها أن تكون نهاية القرن في عداد المجتمعات التي يصح أن نطلق عليها اسم المجتمعات الاستهلاكية، اي التي تشبه الولايات المتحدة اليوم، وتذكر بينها الاتحاد السوفياتي وكثيراً من دول أوربا وتضيف اليها اسرائيل . ثم تحـــدثنا تلك النبوءات عن مستويات اخرى من الحضارة والنمو ستكون عليها في رأيها بعض الدول في مقبلات العقود . أما الدول العربية فتضعها في المنزلة التي تسبق المنزلة الدنيا ، وترى أنها ستكون اذ ذاك في عداد المجتمعات التي بدأت تدخل المرحلة الصناعية .

وليس المقام مقام تفنيد هذه التصنيفات ، وبيان الأسس التي استندت اليها . غير ان من الهام ان نستدرك فنقول إن هذه الدراسات التحسبية تشير هي نفسها الى حدودها ، حين تبين أن هذه النبوءات تصدق في حال واحدة ، هي حال استمرار الاتجاهات السائدة في الدول المختلفة ، أي حال استمرار الماضي والحاضر في المستقبل . أما اذا حدث تطور « ذو مفاجآت » عن طريق أحداث عالميـــة كبرى تغير مجرى الأمور ، أو عن طريق حدوث حركات قومية ثورية قادرة على احداث تغييرات جذرية ، فالامر لا بدّ أن يأخذ شكلا آخر يصعب التنبؤ به .

وبتعبير آخر ، أهم ما يعنينا من هذه النبؤات أنها ترينا الصورة القاتمة التي تنتظر مجتمعاتنا بالقياس الى سائر المجتمعات ، ان جاء مستقبلنا مجرد امتداد عادي لحاضرنا. ويعنينا منها أكثر ، تبعاً لذلك، أنها تضعنا وجهاً لوجه أمام مسؤولياتنا، حين تجعل تغيير تلك الصورة القاتمة رهناً بمشيئتنا وبما نحققه من جهد من أجل تجاوز تلك الصورة القاتمـــة المنتظرة الى صورة مرجوة، نرسمها ونرسم خطوات الوصول اليها .

ان هذه الدراسات التحسبية تدلنا على الهوة المتعاظمة التي ستقوم بيننا وبين الدول المتقدمة إن نحن تابعنا خطونا وسرنا سيرتنا المألوفـة . وهي تشير الى أن هذه الهوة سوف تقيم بيننا وبين الدول تفاوتاً في النوع والطبيعة لا في المستوى والدرجة ، وأن المستوى الحضاري الذي سنبلغه بالخطو العادي ، سوف يعرضنا لأن نكون في عداد مجتمع العبيد بالقياس الى مجتمع الأسياد ، مجتمع حضارة ما بعد الصناعة .

غير أنها في الوقت نفسه تنطلق من أصولها ومناهجها لتقول لنا ان مثل هذا المصير ليس حتماً أو قـدراً ، وأن تغييره رهن بوعينا له واذا كنا لصورته

وعزمنا على تغيير تلك الصورة . وجوهر هذه الدراسات التحسبية كما رأينا في أكثر من موضع أنها تطلع الانسان على مستقبله المتوقع فيما لو كان ذلك المستقبل مجرد امتداد للماضي والحاضر ، من أجل هدف أساسي وهو أن يصوغ ذلك المستقبل صياغة جديدة ، وان يكون له في صنعه نصيب . ان اهم ما فيها انها تسلم الينا زمام قيادة المستقبل ، وتدلنا على خطوات صياغته وبنائه ، ان اردنا ذلك ووعينا أسبابه ووسائله .

الدراسات المستقبلية والمجتمع العربي :

والحق لئن كنا وقفنا طويلا عند هذه النظرة المستقبلية ، فلأنها اولاً وقبل كل شيء ، منهج في التفكير والعمل ، ولأنها تعبّر عن منطق العصر وروح العصر ، تلك الروح التي لن نستطيع بدون وعيها ان نغير واقعنا ونبني حياتنا .

ان مستقبل الشعوب اليوم لا يبنى من خلال تجربة الماضي او تجربة الحاضر ، بل يبنى من خلال التعرف على المستقبل ، المستقبل المتوقع من جهة ، والمستقبل المنشود الذي نريد ان نبنيه انطلاقاً من ذلك المستقبل المتوقع من جهة ثانية . لم تعد تجربة الماضي والحاضر ، على اهميتها ، تكفي لبناء حياة الشعوب ، بل لا بدّ من نظرة مستقبلية تحسبية ، نحدد على ضوئها مهماتنا وخطواتنا ورؤانا : اين سيكون العالم في مقبلات الأيام ؟ اين سيكون موقعنا من العالم اذ ذاك ؟ ما هي المشكلات التي ستواجهنا في المستقبل في ضوء تلك الصورة العالمية وفي ضوء الصورة المتوقعة لمجتمعاتنا ؟ ما هي الجهود التي علينا ان نبذلها لنجعل من صورة المستقبل عندنا صورة تساير الركب العالمي وتنجو من هوة التخلف والانسحاق ؟ اسئلة كثيرة لا بدّ من طرحها ، تدلنا عليها الدراسات المستقبلية خاصة ، ويهدينا اليها منهج البحث المستقبلي .

ولا يتسع الحديث - مرة اخرى - للبحث في الخطوات اللازمة لبناء صورة المستقبل في مجتمعنا العربي ، ولدراسة المنهج التحسبي الذي يساعد على جلاء تلك الصورة . وحسبنا ان نحدد في خاتمة هذه الكلمة ، بعض الاتجاهات الاساسية التي نرى ان تنطلق خلالها الجهود في هذا الاطار :

١ - لا بدّ ان نبني خططنا الاقتصادية والاجتماعية التي نضعها للمدى القريب ، استناداً الى مثل هذه الرؤى البعيدة التي تهدينا اليها الدراسات التحسبية . فالخطط الاقتصادية والاجتماعية القريبة المدى ، لا بدّ ان تستند الى تصورات أبعد ، ولا بدّ ان يكون رائدها وموجهها الصورة البعيدة التي نريد عليها مجتمعاتنا في العقود المقبلة . ولم يعد من الجائز اليوم ، في عرف التخطيط العلمي ، ان نبني خططنا القريبة الأجل او المتوسطة الاجل استناداً الى تجربة الحاضر والماضي او استناداً الى تصورنا للمستقبل القريب . ولا بدّ ان نبنيها استناداً الى تصورات بعيدة الاجل ، بل الى دراسات تحسبية مستقبلية ، تقدم لنا التصور الاجمالي الكلي الذي نريد عليه مجتمعنا ، والذي تنطلق منه لتحديد الخطط المرحلية الموصلة اليه .

ومثل هذا المطلب يستلزم ان نعنى بالقيام بمثل هذه الدراسات التحسبية المستقبلية - وان نخلق لهذه الغاية هيئات تتفرغ لهذه الدراسات . وقد رأينا كيف ان الحزب الشيوعي التشيكي قد أوكل الى فريق من الباحثين ، وعلى رأسهم الفيلسوف « رادوفان ريشتا Radovan Richta » أمر وضع صورة تحسبية للمستقبل التشيكي ، ورسم التطورات الاجتماعية والعقائدية اللازمة في اطار تلك الصورة . وفي العديد من البلدان نجد لجاناً شكلت لمثل هذه الدراسات المستقبلية ونجد هيئات حكومية وخاصة تتولى مثل هذه الابحاث ، كنا نود أن نتحدث عن بعضها لولا ضيق المجال .

٢ ـ ولا تستهدف مثل هذه الدراسات التحسبية المرجوة مجرد وضع الاسس والمنطلقات للخطط الاقتصادية والاجتماعية في بلادنا ، بل لا بد ان تستهدف وضع تصور أشمل وأوسع لشتى جوانب حياتنا الفكرية والعقائدية والنفسية والخلقية وسواها . لابد ان تتم هذه الدراسات التحسبية بتعبير أدق في اطار تحسب عقائدي فكري ، يرسم الصورة المرجوة لاسس حياتنا كلها . وقد رأينا منذ قليل كيف استهدفت دراسات الفريق التشيكي مثل هذه الغاية الاشمل . ولا حاجة الى القول إن مسألة بناء حضارة شعب من الشعوب ليست مسألة اقتصادية فحسب ، بل هي مسألة اجتماعية انسانية في اعماقها . ولا بد ان يكون الهدف الاول من الدراسات التحسبية في اي بلد ، رسم صورة الحضارة الجديدة بالانسان ، الملبية لمطالبه الانسانية العميقة ، القادرة على تحريره من القيود الاجتماعية والنفسية والسياسية الكثيرة التي يرزح تحتها .

٣ ـ ومن شأن مثل هذه الدراسة التحسبية الشاملة ان تطلعنا على صورة المستقبل من خلال الوطن العربي بكامله ، وأن ترينا بالتالي كيف أن النظرة الوحدوية نظرة مستقبلية ، وكيف أن النظرة المستقبلية لا بد ان تقود الى نظرة وحدوية . فالصورة التحسبية التي نصل اليها من خلال تقري الواقع العربي الراهن ومدّ صورته الى المستقبل ثم مقارنته بصورة العالم المتقدم في نهاية القرن ، لا بد أن تهدينا الى ان ردم الهوة بين الصورة المتوقعة للبلاد العربية وبين الصورة المتوقعة للعالم لن تتم الا من خلال تعبئة طاقات الوطن العربي كله .

ومن أهم فوائد هذه الدراسة المستقبلية انها تساعدنا على رسم هذه الرؤية الوحدوية اولاً ، وانها تعيننا ثانيا وخاصة على رسم المراحل المؤدية الى تحقيق تلك الرؤية .

٤ – وينتهي بعد ذلك ان تسعفنا هذه الدراسة التحسبية في ايجاد طريقنا الخاص نحو الاشتراكية ، في ضوء تلك الصورة الشاملة التي رسمناها لمجتمعنا في العقود المقبلة ، وفي ضوء موقع بلادنا من العالم . واذا كانت المسألة الهامة في البلدان النامية عامة وفي بلداننا العربية خاصة ليست مسألة الاخذ بالاشتراكية بمقدار ماهي مسألة ايجاد الطريق العلمي للاشتراكية ، نعني الطريق المستمد من بنية البلد الراهنة واهدافه المقبلة ومن الاطار العالمي الذي يسبح فيه حاضراً ومستقبلا ، فلا شك ان مثل هذه الدراسة التحسبية الشاملة تكوّن «الطريق الأمَم» والطريق السلطاني Voie royale كما يقال نحو مثل هذه الاشتراكية العلمية .

٥ – وبقول موجز ، ان الدراسة التحسبية تقدم لنـــا جواباً على ذلك التساؤل القلق الذي يعصف في نفوسنا دوماً ويتململ في عقولنا : من أين نبدأ ؟ من أين نبدأ في تغيير مجتمعنا وفي بناء حياتنا ؟ وجوابنا على هذا التساؤل أن البدء لابد أن يكون من النظرة الكلية الشاملة للامور ، من الصورة الكلية التي نريد عليها حياتنا . وعند ذلك تضع كل جهد جزئي أو قطاعي في اطـــار تلك الصورة الكلية ، ويستمد كل عمل معناه من مدى تكامله وتفاعله معها ومن مدى فعاليته ونجعه في تحقيقها . وطبيعي في مثل نظرتنا التحسبية أن تكون تلك الصـــورة الشاملة التي نريدها لحياتنا مستقاة من تصورنا للمستقبل وللمستقبل البعيد ، لا من اجتهادات قصيرة النظر وقصيرة المدى ، تبني المستقبل في ضوء الماضي والحاضر وفي ضوء تصور غامض غير علمي للمستقبل القريب .

٦ – ولا شك ان مسائل اساسية عديدة ستواجهنا ونحن نقوم برسم تلك الصورة التحسبية الشاملة لمجتمعنا العربي . ولا مجال هنا الى الحديث عن مثل هذه المسائل . غير اننا نكتفي بالاشارة الى مسألة رئيسية ، تتحلق حولها سائر المسائل

الى حد كبير ، ولا بد ان نوليها عناية خاصة في مثل هذه الدراسة التحسبية . ونعني بها المسألة التالية :

اذا كان الطابع المميز للعصر في العقود المقبلة هو طابع الثورة العلمية التقنية كما رأينا ، واذا كانت الهوة بيننا وبين العالم المتقدم ستزداد اذا لم ندخل تلك الثورة ، فما سبيلنا الى ذلك ؟ هل يصح ان ننطلق من حيث يقرره بعض علماء الاقتصاد اليوم حين يقولون ان الامل الوحيد امام البلدان النامية في تجاوز الهوة بينها وبين البلدان المتقدمة يثوي في دخول الثورة العلمية التقنية تواً ودون التريث عند الثورة الصناعية الاولى ؟ هل لزام علينا ان نمر أولاً بتجربة الثورة الصناعية الاولى ، بأخطائها ومزاياها ، كي نستطيع الانتقال الى الثورة الصناعية الثانية ، أم أن في وسعنا ان نختصر المراحل وان نحاول دخول هذه الثورة الصناعية الثانية مباشرة ودون ماوسيط ؟ هل يفترض دخول هذه الثورة الثانية ، الثورة العلمية والتقنية ، وجود بنى اقتصادية واجتماعية سابقة تشترط قيام ثورة صناعية اولى ، ام ان في وسعنا ان نتفادى تكرار التجربة الصناعية وتكرار اخطائها ومزاياها على حسابنا ؟

سؤال ضخم ، هيهات لنا ان نجيب عليه . والدراسة التحسبية وحدها هي التي تستطيع أن تجيب على مثله . غير انه سؤال هام وأساسي . والجواب عليه يدلنا ، ان صح التعبير ، على « قادومية » المجتمع العربي نحو الثورة الصناعية الثانية . إنه يهدينا الى الوسيلة التي يستطيع بها هذا المجتمع أن يقوم بجهد ثوري علمي لتجاوز هوة التخلف التي ستتعاظم في المستقبل . فهوة التخلف المتعاظمة لايمكن تجاوزها الا بجهد ثوري ، شريطة أن يكون ذلك الجهد جهداً ثورياً علمياً ، لامجرد نزق أو احلام .

* * *

خـاتمـة :

وبعد ، هل نستطيع أن نقول في خاتمة هذا الحديث ، إن المنهج المستقبلي هو سبيل المجتمع العربي الى أن يرقى ، بجهد علمي منظم ، نحو المنزلة التي يرتضيها لنفسه بين منازل الدول في مشارف القرن الحادي والعشرين ؟

لن ينكر مجادل أن مسألة التقدم في المجتمع العربي تجتاز محنة وأزمة ، وأن الهوة بين هذا المجتمع وبين المجتمعات المتقدمة ، تزداد وتتعاظم . ومثل هذه المحنة تزداد خطراً اذا نظرنا الى التحدي الكبير الذي يواجهنا ، التحدي المتمثل في دولة اسرائيل التي استطاعت الصهيونية العالمية ان تجعل منها مجتمعاً غربياً متقدماً في قلب المجتمعات المختلفة . ولا مراء في ان تجاوز مثل هذه المحنـــة يحتاج الى جهود استثنائية . والجهود الاستثنائية ، في عصرنا ، ليست شيئاً آخر سوى الجهود العلمية المنظمة ، الموجهة نحو البناء العقلاني لمجتمع عصري حديث . فالثورة كما قال « جارودي Garaudy » تتم اليوم عن طريق العلم . والعـلم ليس مقصوراً على ادخال العلوم الحديثة والتقنيات الحديثة الى مجتمعنا ، بل هو اولاً وقبل كل شيء المنهج العلمي والروح العلمية التي تسود العصر .

والمنهج العلمي الذي يسود العصر ، هو ذلك المنهج الذي يأبى أن يعيش يوماً بيوم كفافاً دون ان ينظر الى غده . انه المنهج الذي يرسم الحاضر من خلال المستقبل ، ويرسم المستقبل من خلال دراسة علمية تحسبية ، لها اصولها وفنونها التي أشرنا عابرين الى بعضها . ان شعار الثورة العلمية في عصرنا هو شعار السيطرة على المستقبل والامساك بزمامه ، بحيث يصبح ملك أيدينـــا ، وبحيث نقوى على صياغته وصنعه بعرقنا ودأبنا . ومثل هذه السيطرة على المستقبل أصبحت ممكنة الى حد بعيد بعد نمو تلك الاساليب الفنية الخاصة بالتنبؤ بالمستقبل ، وبعد تقدم

الثورة الالكترونية خاصة المتجلية في الحاسبات الالكترونية وقدرتها التنبؤية الهائلة. أن نسيطر على المستقبل أو أن تقودنا الاحداث الى حيث تريد ولا نريد ، تلكم هي المسألة اذن في مجتمعنا #هل نستمر في اجترار مأساة الأمس واليوم ، أم ننطلق نحو رسم تاريخ الغد ، ذلكم هو السؤال .

ألف باب سيفتح أمامنا عندما ندق باب المستقبل . هل نطرق ذلك الباب المليء بالوعود ام نستمر في فتح أبواب مفتوحة ؟ أملنا أن تقودنا المحنة المرة القاسية الى دخول الباب الكبير ، باب المستقبل .

الحبّ الثوري
في شعر محمود درويش

ياسين الأيوبي

لا يخفى ان شعر المقاومة – أية مقاومة – ما هو الا نوع من التصدي لكل اشكال الاستعمار والاضطهاد ، تأخذ الكلمة فيه مقام الدرع والبندقية في ساحات القتال . وبينما ينتهي مفعول السلاح الحربي عقب استعمالها ، ويمتد زماناً ، يطول او يقصر بمقدار ماتحمل الكلمة من طاقات التأثير والبقاء .

كما لا يخفى ايضاً ان معظم شعراء المقاومة رجال أوتوا من زخم العاطفة ماجعلهم غاية في الرهافة والاهتزاز ، فسال شعرهم مطواعاً يسطّر كل مشبوباتهم القلبية من حب وغضب ، ألم وغبطة ، يأس وتمرد ، أسى وحرمان . . شعر لا أبالغ اذا قلت إنه المرآة المصقولة التي يرتسم عليها كل ملامح النفس الشاعرة المعاينة .

ولا فرق بين كهل او شاب ، لأن العاطفة في ميدان الشعر لا تعرف الكبر أو النقصان . فأشعار هوشي منه في الحب لا تزال تدغدغ النفوس اليائسة

المحرومة ، وتغدق عليها كثيراً من الآمال ! (١)

وقد نجد شاعراً ، وقف كل شعره على قضايا قومه وامته ، كما نجد بالمقابل من وقف شعره على قضاياه الخاصة من حب و كبت وارتياح ..

والذين استطاعوا الجمع بين الاثنين هم وحدهم المعانون حقاً لمصيرهم ومصير أمتهم ، لا هم تاهوا في خضم امتهم ولا هذه تلاشت كلياً امام الزخم العارم من رغباتهم وصبواتهم .

مـــن هؤلاء الشاعر الفلسطيني الشاب محمود درويش ، رجّع في صدره كل الآهات ، وغنّى على أوتاره كل الاصوات، جامعاً احاديث القرية الى احاديث المدينة، وهمسات الشجر الى اغاني العصافير، ورشحات الليل السامر الى حشرجات الابطال في السلاسل والقيود ، وبواح الصبايا النواهد — وما يرسمنه من امنيات اللقاء والاعتصار بين سواعد الاحباء الفرسان — الى بكاء الثكالى ودويّ الرعب في المخيّمات ، والوان التحدي الاحمر .. الى غير ذلك مما ترجّعه صفحات دواوينه وقصائده هنا وهناك .

---

(١) راجع قصيدة نسيم « أحد نسائم العشبات » في كتابه : يوميات سجين ترجم الشعر : الدكتور ميشال سليمان

الوردة تنفتحُ
والوردة تذبلُ
لا تدري ماذا تصنعُ ..
يكفي الوردة
أن يضوع منها شذى
ويضيعُ في احدى السجونْ
كي تزأر في قلب السجينْ
كل مظالم العالم

محمود درويش شاعر فرد قلّ نظيره في الشعر العربي كله ، لا لأنه شحّت قريحته في سن مبكرة واعطت من عيون الشعر مايربو على السبعة دواوين وهو لم يبلغ الثلاثين بعد ، ولا لأنه — مع قلة من رفاق النضال — استطاعوا أن يؤلفوا اول اطار شعري من نوعه في الادب العربي ... ، بل — حسبما ارى — لأنه ، بقدرة عجيبة استطاع ان يأتي بشعر رائع من فصيلتين : الاولى فصيلة الغزل وكل مايدخل في شعر الحب من وصال جسدي وقلبي. والثانية فصيلة النضال او مايسمى بشعر القضية .. فهو ينقلك في نفس الديوان ، بل في نفس القصيدة من شعر كله شوق والتياع وتلذذ باطايب المرأة ، الى شعر حفر فيه ما لم تحفره الصواعق من جراح الارض وعطش الانسان الى التحرر والاستقرار .

فكيف يمكن تصديق ذلك والاقتناع بحصوله ؟ — الحقيقة لا يوجد هناك مقياس علمي للموضوع ، طالما ان المسألة شعرية بحتة . وما يدخل في الشعر قلما يخضع للمقاييس . ومع ذلك فان الاشارات العامة التي سجلت لمحمود درويش في حياته تسمح لنا بتصديق ما نتجه .

اول الاشارات ماهو معروف عن فتوة الشاعر وشبابه الغض . وتجاربه في الشعر تعود الى مقاعد دراسته الثانوية ، بين السابعة عشرة والعشرين . وفيها مرّ الشاعر بأكثر الادوار تحمساً والتهاباً : تحسس الواقـع المرير الكامن في الاحتلال الجشع لكل ممتلكات العرب في فلسطين ، والتهاب المشاعر والتطلعات الحارة الى الجنس الآخر ..

وثاني الاشارات ، سجنه مراراً (١) مع التعذيب والتجويع .

---

(١) غسان كنفاني : « الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال » . مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، صفحة ٩٨

وثالثها الحياة البائسة المحرومة من أبسط مقومات العيش المقبول ، اذ لم يتوافر له في معظم اوقاته مايكفيه لتأمين لقمة العيش والمسكن الآمن ، وما يقرب من ذلك(١) .

هذه الاشارات هي الدوافع الكبرى لشعر التحسس والالتهاب اومايمكن ان نسميه شعر التعويض الذاتي . فالجوع من جهة والفتوة من جهة اخرى ، كانا وراء اندفاعات قدمه الى المرأة ، وما خط قلبه وقامه لها من روائع الشعر الغزلي والوجداني .

كما كان التشريد والسجن والاضطهاد وراء الاندفاعات الاعصارية في وجه اعدائه واعداء امته ، يمخر في عباب الثورة عليهم مخور الاشرعة البيضاء سلست قيادها للريح العاتية .

ولئن كان لمحمود درويش ورفاقه من ميزة حقيقية في مسيرة الشعر الفلسطيني عامة ، فلأنهم تزودوا منذ نشأتهم بقوة الفعل الارادي والتصميم المركز الواضح الأبعاد ، وهي ميزات الثورة الحقيقية . من هنا صوتهم الاقوى والاعمق، ونظرتهم الفولاذية الثاقبة .

وقبل أن امضي في الكتابة طويلا ، ارى من الانسب توضيح الغرض الحقيقي للمقال ، الاوهو الكشف عن حقيقة النفس العربية الجديدة ، وخاصةهذه التي احسنت النفاذ الى حقائق الامور ، وانطلقت تحطم في طريقها كل رواسب الفكر والمسالك العقيدية التقليدية ، مستبدلة اياها بمفاهيم جديدة تنسجم وروح العصر الذي نحن فيه .

---

(١) راجع ماكتبه رجاء النقاش عن حياة الشاعر في كتابه : « محمود درويش: شاعر الارض المحتلة » كتاب الهلال . تموز سنة ١٩٦٩ .

فالالتزام عند محمود درويش لايعني تأجير القلم الى قضية واحدة هي الكلام الجماهيري الوطني الصرف، وكمّه عن كل مايعانيه صاحبه من نزوات ومشاعر اخرى... بل يعني قبل كل شيء تعرية الذات وتسليط الاضواء عليها . سواء كانت ذاتاً نرسيسية ام ايثارية ، هادئة رزينـــة ام صارخة مزبدة ، عفيفة أبية ام ماجنة مستهترة .

ذلك ما سوف نقع عليه في شعر محمود درويش من ملامح الحب الثوري . اول مايستوقفك في موضوع الحب هو هذه الكمية الواسعة من الشعر الغزلي التي احتواها ديوانه الاول « عصافير بلا اجنحة» .في هذا الديوان من معـــاني الحب وصوره المنوعـــة ، البعيدة الغور مالا يمكن إيجاده الا في دواوين شعراء الغزل كعمر بن ابي ربيعة وجميـــل بن معمر والعباس بن الاحنف واحمد شوقي وسعيد عقل . فهو يبدأ رأساً من القمة ويقدم لنا شعراً عاطفياً من النوع الرفيـع ، رغم ان سنه المبكرة آنئـــذ لاتمكنه من ممارسة تجربة عاطفية عميقة ، كالتي نتحققها وراء نتاجه الشعري هذا .

ففي اول قصيدة من قصائد « مشوار حب » التي تتضمن حوالي عشـــر قصائد ، يدخل محمود درويش الى سريان الظنون والهمس الدفين الذي يختمر في في صدور الفتيات اللواتي يعشن صراع المنافسة العشقية فيما بينهن :

كيف كانت ؟ قل لي بحق نهودي ... يوم علمتها ختام السكينة !
أهي مثلي ضعيفة حين تطـوى ... تتراخى بلذة .. وليونة ؟ (١)

واذا ماعبرنا الى القصيدة المجاورة ، اخذتنا حيرة قاسية لأننا نقف وجهاً لوجه مع تجربة شعورية ناضجة ، من الغريب جداً ان تكون لفتى في الثامنة عشرة:

فالسبك الشعري ، واللحمة القوية ، والصورة الخلابة ، والآثار الناعمة ، والايقاع الملتهب ، تناغماً وتجاوباً .. كل ذلك يحمل على الشك في ان يكون ناظمها هو ذلك الفتى الطري العود الناحل القامة ! كأن يقول عن صبية حبيبة :

.. وتربك الفستان ، تربكه   يا ويله .. يطول ام يقصر
.. فهو مع النهد له قصة   خطيرة ... وموعد اخطر
وفي ظلال الساق مشواره   دنيا لظى يكبر او يصغر (١)

فالشاعر كما يبدو لاينطلق من مبدأ الاثارة والتخدير الحسي ، شأن كثيرين من شعراء الجنس يغرقون انفسهم وسامعهم ببرد مشاهد من العلاقة بين الرجل والمرأة ، لانهم لهم فيها الا اظهار قدراتهم على النوال بأية وسيلة ، ومهما كانت عليها حالهم من العجز او الانحراف . هؤلاء يخدعون انفسهم قبل ان يخدعوا غيرهم ، لأن اسلوب الإثارة في تصوير العلاقة الجنسية ليس موهبة او بدعة لايؤتاها الا العباقرة ، بل ليس اسهل من القيام بهذه المهمة . ويكفي للتدليل على ذلك التذكير بشيوع مجلات الجنس التي اصبحت كمواد الغذاء لاتخلو منها واجهة من واجهات البيع الصحفي .

واذا كان هناك من صعوبة — والاصح ، موهبة — فهي ان تتحدث عن علاقة الرجل بالمرأة دونما إثارة . او ان تتحول الإثارة من حيز الغرائز الى حيز التسامي Sublimation العاطفي العميق . حتى ولو اثيرت الغريزة فهي إثارة طبيعية لابد منها ولكنها غير مقصودة لذاتها .

---

(١) « عصافير بلا اجنحة » صفحة ٦٩ — ٧٠

(٢) « عصافير بلا اجنحة » صفحة ٧٣

على هذا المنوال سار محمود درويش ، لايهمه الكسب الرخيص أو السريع ، بل الوصول الى مستوى من التعبير يشعر فيه هو أولاً بالارتياح السامي الهنيء ومن بعده القارىء . لأن الفنان الأصيل لايقدم على العمل الفني الا بدافع لاشعوري ، هدفه الأكبر الخروج من عالم المخاض المؤلم الى عالم الولادة المريح ..

ففي قصيدة « خذني اليك » يقفز الشاعر بسرعة وبخفة الى عالم التعرّي الذاتي ، لايخشى امتعاضة متزمت ولا همهمة محافظ ، فيرسم لنا عالماً صغيراً عميق الجذور هو عالم الصبية الحبيبة التي لاتملك لنفسها شيئاً من مفاتن جسدها — بل كل مالديها ملك حبيبها . ولا ينتهي الشاعر من تصوير هذا العالم الصغير الا ونحن في عوالم أخرى متشعبة كلها تألم وتحس :

... اضغط على جسدي الطري ... فقد نضجت
وادعك شفاهي — هكذا — اني احترقت
وعرفت موردي الحبيب ... لقد عرفت
ادعك ! بلى ... بحرارة .. اني كبرت
خذني لديك
ماعدت احتمل الكلام .. فلا تثرثر ياحياتي
دع عنك فلسفة الحنين .. وذق فضول الدغدغات
شفتاي للتقبيل ، لاتحرجها بالثرثرات
ظمأى أنا .. عطشى انا .. بلل شفاهي ياحياتي
خذني اليك
دعني اعيش على يديك ... (١)

---

(١) « عصافير بلا اجنحة » ٧٤ — ٧٥

فالفتاة هنا تعرف تماماً أمام نفسها ، وانقشع كل تحرك فيها فقدمته باقة بحملية الى فتاها . وهي لاتطمح الى أكثر من هذه الهدية التي عاشت عمرها وهي تهيئها له . وتناولها الشاعر ناثراً إياها على أرجاء نفسه مستمتعاً ، مستهلكاً كل مافيها من اريج التوق والايحاء الوجداني الصارخ .

ويستمر الشاعر في تعرية الذات فيغوص أكثر الى اغوار البنات المراهقات ليعود بكثير من اسرارهن التي غدت اناشيدهن في خلواتهن ..

... دع عنك هفهفة العبير .. وهمس انسام المنى
انا هنا في الانتظار .. تعال لون عمرنا
سوء النهود قصيدة شقراء ، وانشد معلنا
هي في انتظارك جذوة حرقت ستور حريرنا
ضاقت بها .. وتذمرت من وهجها حلماتنا
فبكت وبللت الدموع البيض صدرياتنا
واستنجدت بك فاقترب واطفىء لظى شهواتنا (١)

يؤمن الشاعر بأن الشعر ينبغي الا يكون عائقاً أمام الترويح النفسي . انه لايريد التستر الغبي ، ولا التعقيد الأحمق ، فهو شاب وله قلب صاد ، فلماذا لايروي قلبه وجسده ؟ ولماذا التخوف من اظهار المشاعر الصادقة ؟ وهكذا فإن الاتجاه الاباحي يتبلور هنا أكثر فأكثر .

وهو إن دل على شيء فعلى مذهبية واقعية يرغب الشاعر من خلالها الا يخدره الرمز أو الايماء . فقد ضاق بكل ذلك . ولا ضير في مصارحته طالما انه يتحدث هنا بلسان الفتيات المراهقات ، وهن من هن تلهباً واحتراقاً لمثل هذه المداعبات في هذه السن .

---

(١) نفس المصدر : من قصيدة « رسالة انثوية »

واذا كنا بحاجة اكثر الى توضيح عاطفة الحب المبكر عند محمود درويش ، فلا أفضل من سماع هذه الأبيات التي رسم من خلالها كل الاسرار التي تحيط بالقبلة :

وقطفتها عنقود اشواق	فتخدرت اعماق اعماقي
اشمومة من نشوة غمرت	شطآن حرماني ، وآفاقي
وعلى شفاهي أزهرت خصل	من رفرفات حنيننا الباقي
لمّا تعانقنا وغيبنا	شلال آهات واشواق !
.. ركزتها ، وبدأت ملحمتي	شفة على شفة باطباق
.. هي بين أثوابي مخبأة	وعيونها ضاعت باحداقي(١)

عشرة أبيات – قوام القصيدة – قفز فيها الشاعر من حيز الكلام الى حيز الصور الحية المنتفضة أمامنا بدون اثارة ، ولكن بارتحال عبر الصور الى رؤى ، يحيك خيوطها ، كل على هواه . القبلة هنا أقوى بكثير مما هي في الحقيقة .. قبلة الحقيقة إما ان تراها أمامك أو ان تمارسها بنفسك ، وفي كلتا الحالتين لاتبعد عن ان تكون لقاء جسديا يتم بدافع الشوق الغريزي والعاطفي بين الطرفين ، وتنتهي تأثيراتها بمجرد مرور الوقت القصير . واذا تبقى شيء فهو من قبيل التخيلات والصور الضبابية .

شاعرنا هنا يحوّم فوق هذه الصور الضبابية ، فيجعل منها مسرحاً طبيعياً صرفاً ، فيه كل المشتهيات التي تصاحب القبلة الحقيقية ، مضافاً اليها هذا الاطار السحري الخلاب .

---

(١) « عصافير بلا أجنحة » – « قبلة » صفحة ١٠٥ – ١٠٦

أتوقف عند هذا الحد من عرض مظاهر الحب المبكر لأن محمود درويش لم يقف عنده ، بل اتخذ مع مرور الأيام والاعوام اشكالا اخرى ، كانت تتأرجح بين تضخيم النهم الجسدي الى حدود بعيدة من الاباحية ، والولوج بعيداً في ابهاء العبور الروحي العالي ، ماراً في كثير من القصائد ، لابل في معظمها ، بشكل آخر قد يجمع بين الشكلين الاول والاخير ، وقد لايحمل منها اي ملمح . عنيت الحب المكافح ، او الحب الثوري المجبول ، ككل مكتسبات الثوار بالعرق والعذاب والأرق والهوان . لقد تعمقت عاطفة الحب عند محمود درويش وصهرتها التجارب ، فمالت بصاحبها صوب التصورات الكثيفة ذات الدلالات المعقدة ، ومال هو بها صوب التعنت والرفض والاكتواء بنار الإباء ، لدرجة انسحاقها تماماً . فلا يعود هناك ما يظهر سوى شرارات ذات الشاعر العملاقة ...

حول هذا الشكل ــ شكل الحب الثوري ــ يدور باقي الكلام في هذه الدراسة .

أما ما كتب في الصفحات السابقة عن الحب الواقعي او الحب الصرف فأمر لا بد منه لأنه المدخل الطبيعي لعاطفة الشاعر الثورية التي تتبلور شيئاً فشيئاً بالرغم من كل ما لحق بها من سقطات القريحة .. فما هي ملامح هذا الحب ، وما هي أبعاده ؟

لا بد من توضيح شيء هنا ، وهو ان عاطفة الحب الثوري لم تولد فجأة مع الشاعر ، بعد مسيرة حبه الاول المفعم بالحيوية والاندفاع المذهل نحو لذائذ الجسد .. ، بل ولد معه ونشأ وترعرع بين شتى الظروف القاسية التي مرت عليه . ولئن لم يتخذ طريقه مباشرة نحو القريحة الشعرية ، فلأن الدفق الشعوري الفني نحو

الجنس الآخر كان اقوى من ان يتحول عن مجراه الطبيعي ، او حتى يرتدي ثوب المواربة والتلميح .

تلك كانت نفسية محمود درويش وتلك هي طريقته . فكما تكون الحياة الخارجية تكون الحياة الداخليـــة ، والا فهي ردة فعل معاكسة تنتج عن قوة الحرمان او شدة الغليان من الاحساس بالواقع المر. لهذا يسميها علماء النفس بالقوى التعويضية المتعددة الاشكال .

لقد نشأ محمود درويش في ظلال التشرد والاحتلال منذ عام ألفـ وتسعمائة وثمانية واربعين حتى اواسط العام المنصرم (١) . فكان من الطبيعي ان يتعرض حبه في مطلع شبابه الى مرارة العيش وشظفه ، محاكياً تماماً حالة البؤس المخيمة على صاحبها . ففي « قصيدة » حب من الكوخ — وهي من اوائل قصائده — يعبر محمود درويش عن « فقر » حبه ورزوحه تحت الخيام وعلى الحصير المهترىء ، فيقول :

كوخي صغير
لا شيء ، فقر فيه للحب النضير
لا شيء ، يا فتانة العينين ، يا همي الكبير ؟
سجاده .. وحياة غربتنا ،. حصير
أوتجلسين على الحصير
وتلوثين ذيول مخملك الوثير ؟ ! ..

لابل كان حبه الاول لا يجد ما يسد به رمق المسير والتلاقي . كان من البؤس ما دفعه الى صاحبه يستعير منه الثوب والمال ليتمكن من الظهور بمظهر مقبول امام من يلتقي بها لأول مرة . في هذه اللحظات كان الشاعر يعيش كل دقائق العمر بجراحاته وترنماته :

---

(١) المعروف انه الآن يعيش في القاهرة بعد ان قدم اليها من موسكو

شدّت على يدي
ووشوشتني كلمتين
اعز ما ملكته ، طوال يوم :
« سنلتقي غداً »
ولفها الطريق ..
حلقت ذقني مرتين
اخذت ثوب صاحبي وليرتين ..
لأشتري حلوى لها ، وقهوة مع الحليب (١)

في هذه القصيدة لا يصدر الشاعر فقط عن كفاف اليد وفراغها من كل شيء: بل عن اليباض النفسي - إن صح التعبير - لدى العشاق الفقراء الذين يريدون الظهور بعواطفهم كما يظهر الغير، وإلا حرموا من هذه المسعدات، وضموا الى آلام العيش آلام النفس .

ان حياة محمود درويش غالباً ما كانت تفتقر الى مقومات الأنس والسعادة، فهو لا ينفك يرسل زفراته وتأففاته من وحدة قاسية رهيبة .. وأرهب مافيها انه انه يعيشها وهو في عقر داره ، لا يعرف من معطيات هذه الدار شيئاً . وهذا يملأ كثيراً من قصائده ، فاذا به تارة مع الوحدة والفراغ، وتارة مع الغربة المعوزة والعيش الرتيب . وكله ليس سوى اصداء معاناة قلبية وجراح كرامة ، يتصارع فيها شدو الخلجات العاطفية مع سوط الجلاد وسورة الحقد وصليل القيود المزروعة في الاقدام :

وحين أعود البيت
وحيداً فارغاً ، الا من الوحدة

---

(١) « اوراق الزيتون » - « الموعد الاول » ٥٤ - ٥٥

يداي بغير امتعة ، وقلبي دونما وردة ...
... وحيداً اصنع القهوة
وحيداً اشرب القهوة
فاخسر من حياتي .. من كفاحي
اخسر النشوة
... وحين اعود للبيت
أحس بوحشة الصمت
... واختزن العذاب لأنني وحدي
بدون حنان كفيك
بدون ربيع عينيك ...(١)

هذه وحدة البيت الذي يحتضن صاحبه وينفض عنه غبار الكدح اليومي ، فيشعر المرء وهو في داخله بضياع كل العذاب وتلاشيه .. لكن شاعرنا لايحظى بشيء من ذلك . فكيف وهو في غربة عن البيت ؟ انه في حالة أشد .. حالة التوتر والتشرد .. حالة المنفي .

وكل ما في غربتي
زوادة فيها رغيف يابس ، ووجد
... وكل ما قيل وما يقال بعد غد
لاينتهي بضمة .. او لمسة من يد
لايرجع الغريب للديار
لاينزل الامطار ...(٢)

هذا الشاعر المنفي المبعد ، هل كان يصدر عنه مثل هذا الشعر لو كان يحظى باستقرارية الحب الهانيء ؟ هل كان يغترب وهو في دياره ؟

---

(١) « أوراق الزيتون » اغنية : ٥٧ — ٥٩ .
(٢) نفس المصدر : « رسالة من المنفى » ص ٦٢ .

اغلب الظن ان حياة لاتستقر على قرار ، لايمكنها أن تحظى بحب مطمئن قرير العين .. وتسوء الامور كثيراً عندما يعتبر الحب رجعة امل ودفقة حياة على الدرب الطويل .. والقلب الذي يحمله درويش ، من هذا النوع : ينحل حتى الأعماق امام حرم من وجد وتصاف ، ويستولي عليه مايشبه الذهول والاختناق . فلنسمعه وهو يخاطب امه من المنفى محدثاً اياها عن صحته وقوة بدنه وسريان ماء الشباب في كيانه ، وهو يتمرغ في تراب التسكع والاستخدام في المقاهي والمطاعم

انا بخير
قد صرت في العشرين
وصرت كالشباب يا اماه
اقول للحلوة ، آه
يا اخوتي ، ما اطيب البنات
تصوروا كم مُرّة هي الحياة
بدونهن ، مرّة هي الحياة ..!(١)

وهل أمرُّ من الحياة الممرغة بالفقر والجوع ؟ وهل امرّ من حب لايجد طريقاً الى قلب آخر ، وهل امرّ من حب لايجد قوت يومه ؟ هي ذي اشعار محمود درويش تصور كل ذلك لتجعل منه اغنية السامر المحروم ، علّها تأسو على بعض جراحاته .

إزاء هذه الحالة الرهيبة ، كان لابد من محاولات التنفس والارتخاء قليلا . محاولات هي عدة لاستكمال المسير والتقدم .. فالشاعر في شرخ شبابه وقد أوتي دفق اختلاج لايهدأ إلا في أوار التجاوب الملتهب ، ولا تنقشع عنه غشاوة التهجم

(١) « اوراق الزيتون » : رسالة من المنفى صفحة ٦٦ — ٦٧ .

إلا مع الوريف الحالم من جدائل طرية تغطي جبهته ووجهه المحترقين تحت اسعات السير الحثيث والعرق الحار :

حين صلى قلبي اليك وغنى
وتلاقت شفاهنا باشتهاءِ
كنت انسى اني بدون طعام
بين قبلات ثغرك الغناءِ
كنت انسى اني بدون غطاءِ
تحت خصلات شعرك الشقراءِ
... كنت انسى التراب في سكرة الوهم
واسمو على سماء شقائي ..(١)

هكذا يجد الشاعر نفسه يبترد بلقاء جارف ينهب بكل السحب السوداء المخيمة على وجدانه ، الحاملة معها كل أدران المأساة المقيتة .

ومع شعورنا بأن الشاعر يصدر هنا عن بعض التناقض مع نفسه ، بحيث يشرح منذ قليل رأيه في هذه الأمور (٢) ويقول انها عديمة الجدوى ، ثم يغرق نفسه هنا في احضان فتاته ليدفن عناء النفس وتمرغها اليومي .. اقول انه مع شعورنا بما يشبه التناقض،فان الرأي لايزال متجهاً الى صدق الشاعر وتلاحم الشعور مع الواقع ، لأن لغة الشعر لاتتحمل الوقوف طويلا امام عدسة المنطق ومفاهيمه الواضحة المحددة .

فما الذي يمنع من ارتياد اجواء المرأة وتلمس الدفء والهدوء لديها ، بعد رفض مثل هذا الارتياح وجعله خيالا ووهماً ؟

---

(١) نفس المصدر : « لديها » ٩٠ — ٩١

(٢) راجع المقطع الشعري الثاني في الصفحة ٧.

والحقيقة ان الاغتراب المحكم الاطباق الذي أدى بالشاعر الى رفض الارتياح مع المرأة ما دام المرء بعيداً عن وطنه واهله ، هو نفسه الذي اطبق على صاحبه ودفعه غير مختار وبدون تفكير الى الحضن الدافىء الذي يهب كل انواع الاطمئنان سواء أكان المرء طفلا ام رجلا ..(١) ولكن الشاعر ما ان يفرغ روعه قليلاً ويلتقط حبات قلبه اللاهث ، حتى يعود بسرعة الى انسكاب روحه الحقيقي القائم على لملمة النوازع الأصيلة ورصفها في اطار واحد يحمل العنوان الحقيقي لصاحبه ، عنوان النضال ابداً حتى في « اجمل حبه » والا فإن حباً لايخطو بصاحبه خطوة أو اكثر على درب التحرير القومي هو « غيمة صيف ، تمر على تربة قاحلة » (٢)

«.. حبيبان نحن ، الى ان ينام القمر
ونعلم ان العناق ، وان القبل
طعام ليالي الغزل
وان الصباح ينادي خطاي لكي تستمر
على الدرب يوماً جديداً !
... والا فان ليالي الحبة ، غيمة صيف
تمر على تربة قاحلة »

ذاك هو حب الشاعر حتى الآن . وقبل ان يعصوصف فيه الحقد الاحمر الذي لا يبقي ولا يذر .

« حبنا ان يضغط الكف على الكف ونمشي
واذا جعنا تقاسمنا الرغيف ..

---

(٢) « اوراق الزيتون » : اجمل حب صفحة ١٣٩

(٣) على كل انا لا ارى فرقاً بين الرجل والطفل في احضان المرأة . كلاهما يستدفىء ويستحان ، وينشد الاستقرار ويلوذ ...

في ليالي البرد أحميك برمشي
وبأشعار على الشمس تطوف .. »(١)

وتجنباً للتشعب والوقوع في مسالك معقدة ، رأيت ان اقسم الشعر في الحب الثوري الى ثلاثة اقسام ، مع التأكيد ان مثل ذلك لا يتحقق عملياً لا من ناحية الشاعر ولا من ناحية القارىء ، ذلك ان الثورية كل لا يتجزأ . ومحاولة تقسيمها هنا ليست الا محاولة للإحاطة بأهم مظاهرها :

١ ـ الحب والوطن
٢ ـ الحب والحرية المتمردة
٣ ـ الحب والمعاناة العامة

١ ـ الحب والوطن

كثيراً مايمزج درويش في حبه بين المرأة والوطن ، فتخرج صور الارض والليل والنخيل والبيادات وحقول السنابل .. رموزاً او انعكاساً لوجه الحبيبة الهاجعة في باله ومخيلته . فتأتي الصور في هذا الصدد متقطعة كما لو قطرات ندى سارحة في اضواء الفجر .

فالوطن هنا لا يأخذ هوية جامدة ، أسيرة المذاهب والعقائد المتزمتة ، بل يسمو مع الشاعر الى اغفاءة الطير في مطاوي الاغصان واشراقة الشمس على حقول السنابل ، وإلى اغنيات الاطفال في رسومهم المتحركة على الرمال وفوق أديم الماء ..

---

(١) « اوراق الزيتون » : رباعيات صفحة ١٤٩

تعالي مرة في البال
يا أختاه !
ان اواخر الليل ،
تعرّيني من الاضواء والظل
وتحميني من الذل !
وفي عينيك ، يا قمري القديم ،
يشدني أصلي
الى اغفاءة زرقاء ، تحت الشمس والنخل
بعيداً عن دجى المنفى ..
قريباً من حمى أهلي ..»(١)

ومن اغفاءة هانئة في ظلال الأهل والديار، الى رؤى الاطفال ومرابعهم في كل تاح يتوقفون عنده ، مهما امضوا فيه من الوقت ، وتمرغوا في التراب ، لا يخطر ببالهم لحظة ان عليهم العودة او الانصراف الى شيء آخر . وما أكثر ما تغنى محمود بالطفولة ، فهي عنده حجر انطلاق ومحطة انتهاء ، لا يرتاح الا عندها . كأنها الحضن الاكبر الذي يدغدغ رأس الانسان كبيراً كان أم صغيراً(٢) .

ويبلغ تأثره بوطنه حد الرجاء والتوسل الى حبيبته ان تدّخر دموعها الى جرح آخر ، غير جرحه ، هو جرح بلاده . فاذا به يتوجه اليها بنشيد جعل فيه موت البطل شيئاً اعتيادياً ، فلا داعي للبكاء ، وليقتصد بالدموع الى يوم أكبر واخطر :

---

(١) « عاشق من فلسطين » ، صفحة ٩٦
(٢) نفس المصدر : صفحة ٩٨ — ٩٩

« مالي سوى عينيك ، لاتبكي
على موت معادِ
لا تستعيري من مناديلي
اناشيد الوداد
ارجوك ! لفيها ضماداً
حول جرح في بلادي » (١)

مادامت المرأة معصورة الفؤاد ، زكية الحقق، فليكن الحقق والانعصار لجرح اقوى ، ليكن للأرض . ولتتحول الكلمة الى فعل ، والخلجة الى دوي . ومع التربة والاطيار والاشجار ، لايمكن ابداً التغني بمشاعر الوصال وانسكابات الود إلا عبرها ، ولا بأس اذا احتلت هي كل الامكنة :

آن لي أن ابدل اللفظة بالفعل ، وآن
لي أن اثبت حبي للثرى والقبّره
فالعصا تفترس القيثار في هذا الزمان
وانا لا اصغّر في المرآة ،
مذ لاحت ورائي شجرة(٢)

ولكن محمود درويش لا يقف عند حدود في مزجه بين المرأة والوطن فاذا كانت القبّرة هنا رمزاً للطيور ، والشجرة تصغيراً للنبات ، وكذلك الثرى ، فانه حينما يعصف حبه ، يشرئب الى الاعالي ، يعبر كل الابعاد ويجتاز مختلف الدروب ليصل الى اروع مايكون الصدق الشعوري ، وأكمله . فاذا بالشاعر

---

(١) « عاشق من فلسطين » : صفحة ٨١ . وقد يثور الشاعر في وجه الدموع ويرفضها مثار احزان او موت ليرى فيها الاعراس والحياة (راجع : « يوميات جرح فلسطيني » صفحة ٤٣)

(٢) « يوميات جرح فلسطيني : صفة ٤٨

ثورة حيرة وضياع ، بين ان يحب المرأة ، ام الوطن ، وبين ان يكون لهذا ام لتلك .

ولا يطول به المطاف حتى يجد نفسه وقد امتزج بين الاثنين ووحّدهما من خلاله هو الذي اضحى رمزاً لكليهما .

« لن اسميك امرأة
سأسميك كل شيء ،
انت عندي مفاجأة
مرايا . . لكل ضوء
لن اسميك امرأة !
انت عندي ، أم الوطن ،
ام انا الرمز فيكما ؟
ولمن جبهتي . . لمن ، ألقبر سواكما ؟ (١)

فحب مثل هذا لن يموت ولن يبقى اسير ضلوع صاحبه ، لانه تجسد في معالم الاشياء والمعاني التي يقوم عليها الوطن .

ذلك هو حب الشاعر وتأثره بالوطن ، حب يوحي انه لاضير في توسيع الدائرة وتعميق الجذور لأن شعوراً يظل حبيس الصدر ولا يخرج الا الى صدر آخر ، غير جدير بالبقاء ، ولا هو واجد تربته الحقيقية .

٢ ــ الحب والحرية المتمردة

على ان محمود درويش في تمجيده للأرض والبلاد من خلال وجه المرأة المحبوبة وتعلقه العميق بها ، انما قد عبّر عن الاطار العام الذي تتحرك فيه مشاعر

(١) « يوميات جرح فلسطيني » :صفحة ١١٤ وقد عبر بنفس الاسلوب تقريباً في ديوانه « آخر الليل النهار » صفحة ٣٧ ــ ٣٨ وبتفصيل شعري اروع بكثير .

حبه الثوري . هذه المشاعر التي كان التمرد عـبر القضبان والقيود ، اقوى طاقاتها الخلاقة .

فظروف القهر العامة التي ألمت بحياة الشاعر ، وما رافقه من ألوان التشرد والحرمان ، ولّدت فيه تياراً جارفاً حمّله شعاره الأقوى ، ورايته المرفرفة التي مايذوق طعم السعادة الا في ظلالها ، عنيت بها الحرية والانعتاق من كل المكبلات والسلاسل . ولم يكن حبه الا الأداة التفجرية . يندفع معها فيحطم كل السدود ويحلق في السماوات الطليقة :

« الا تعلمين بأني
اسير اثنتين ؟
جناحاي ، انت وحريتي
تناامان خلف الضباب الغريبة
احبكما ، هكذا ، توأمين ! .. » (١)

فمع انه لايطيق الأسر ويسعى بكل جوارحه للتخلص منه ، نراه هنا يتغنى بأسره مع حبه وحريته . هل يكون ذلك سوى التعلق ، وهل يدل الا على ما يمكن تفسيره بعدم وجود حرية حقيقية مطلقة ؟

وليس الاسر هنا ، كما اراد ، سوى ردة فعل مزدوج : الاول استسلام الذات – اي ذات شاعرة – الى نوع من القيد يمسكها ويعصرها فتنتشي وتغيب عن الوعي ... والثاني ، كـثرة « ممارسته » للسجن وسكناه داخل قضبانه وشبابيكه الحديدية ، مما يدفعه كثيراً الى هذا المزج المؤلم بين ترحال الرؤى الخفية وارتطامها في الوقت ذاته بالعجز والسدود ... كما يشير الى ذلك بوضوح المقطع الشعري التالي :

---

(١) « عاشق من فلسطين » ص ٢٧ – ٢٨ (راجع ايضاً : « يوميات جرح فلسطيني » صفحة ٥٦ تجد صورة مماثلة تؤكد انصهار الحرية والاسر في اتون الحب)

يود الثغر لو يمتص عن شفتيك ..

ملح البحـر والزمن

يود .. يود ، لكني ، وراء حديد شباكي

اودع وجهك الباكي

غريقاً فوق دمّ الشمس

مهدوراً على الأفق

فأحمل فوق جرح القلب جرحين

ولكني .. احاول أن اضمدها .. اوسدها

ذراع تمرد الحزن ! (١)

في مثل هذا الاطار تخرج احلام الشاعر ومسيراته الذهنية . اطار الرؤى المشرقة التي وحدها تحوّل الاكفهرار الى استبشار، والعتمة الى ضوء، والاسر الى انفلات .

والسجن لايمكنه ان يفعل فعله مع النفوس الشفافة المرهفة الحالمة ، بل قد يفعل العكس ، فيحول الاسار الى مسار الفكر والروح في ابهـاء الوجود الفسيحة . لا بل يصل الأمر الى حد اعتبار السجانين ، اسرى يجرد نحوهم الشاعر كل سياط حقده واحتقاره ، ومتغنيـاً في الآن ذاته بمنفاه الذي يرى فيه كل خريطة الدنيا » :

« منفاي .. فلاحون معتقلون في لغة الكآبة

منفاي .. سجانون معتقلون في صوتي

وفي نغم الربابة

منفاي .. اعياد محنطة وشمس في الكتابة

منفاي .. عاشقة تعلّق ثوب عاشقها

على ذيل السحابة

---

(١) « عاشق من فلسطين » صفحة ٩١ - ٩٢

منفاي .. كل خريطة الدنيا ، وخاتمة الكآبة » (١)

تأمل كيف تحول كل شيء في السجن الى طاقات هائلة قلب بها الشاعر الملامح والهويات ، ملامح العبودية الى أجواء تحرر وانعتاق . وهويات السجانين الى سجناء خلف رعود الصوت والنظرات الجموية الثاقبة . من اين الانسان العادي ان يصل الى هذا المستوى وهذه المقدرة ؟

العملاق وحده ، والثوري وحده ، يمكنها تحقيق ذلك بدون تكلف او ادعاء ...

٣ ـ الحب والمعاناة العامة :

قصدت من هذا العنوان اثبات مظاهر الحب الثوري الاخرى التي لم يكن لها إطار معين ، سوى اطار المعاناة العامة بشتى اشكالها . ذلك ان حباً عنيفاً ينشأ ويترعرع في ظل كفاح مرير يملأ الافق ، لا يمكنه المنجاة من معاناة سحيقة تحيط بصاحبها احاطة الزبد بالموج المتكسر .

وقد مر شاعرنا بظروف مختلفة ، رشح منها في كل مرة شعر له مذاقه الخاص :

١) من وقفة تأمل عميقة في مجرى الزمن وهو في غربة نائية ، ٢) الى تأمل حبيبته والتمعن في جبهتها او حنانها ونضالها والاسترسال في تأكيد هويتها بكل ماتملكه من تقاسيم التميز .. ٣) الى وقفة اخرى يقارن فيها بين ماكان عليه حبه قبل حزيران ، وما آل اليه بعده ...

في المظهر الاول ، يبدو محمود درويش شاعراً وجدانياً ناسجاً من خيوط التخطي الزمني والمكاني صوراً رمزية هادئة بلغ معها اعلى المستويات التعبيرية :

---

(١) « يوميات جرح فلسطيني » ٧٧

« منذ الظهيرة ، كان وجه الافق
مثل جبينك الوهمي ،
يغطس في الضباب
والظل يجمد في الشوارع
مثل وقفتك الاخيرة عند بابي
وخطاك تعبر ، في مكان ما ، كهمس في اغتراب
يا ايها اليوم المسافر في الرمال
أتكن لي بعض المودة ... » (١)

الفكرة والصورة والخاطرة ، امتدت الواحدة الى الاخرى عبر جناح قرمزي شفاف ، تتراءى من حواليه كل الأبعاد المرجوة لدى الشاعر .. كل القصيدة ترحال ، وكل ألفاظها محطات ومنطلقات في درب الرحلة الطويلة : الافق والظل والهمس واليوم والليل ، ووجهان ، وقصة حب لم تعرف الملل (٢) .

هذا هو حب محمود درويش هنا . حفنات من النضال في وطأة المحاق الذي يلفه بكامل كيانه . على انها رموز حية يتدفق فيها التحسس الواعي ، من خلال التشابيه المعقودة خصيصاً لذلك . فهو لايرغب في الايغال المقصود لذاته . وانما هي شطحات لابد منها ، لارضاء قريحته الشعرية المتنامية عبر الزمن ، كما هو ارضاء

---

(١) آخر الليل النهار » ص ٩١ – ٩٣ .

(٢) نفس المصدر :

وانا وانت مسافران ولاحنان انا وانت
ماذا تسر لك الكواكب انها من دون بيتي
لاتسمعيها ، كان فحم الليل يرسمها على تمثال صمت .
وانا وانت ، أنا وانت ،
شفتنا حنين ، كان ملح الانتظار طعامنا

للذوق الشعري السائد في ايامنا متجاوزاً في بعض الاحيان حدود المألوف الى ماهو أبدع بكثير (١) .

« الظل يسند جبهتي
والأفق يشرب من نبيذ الشمس
ماشربت يدي ،
في ذات يوم ،
من ضفائر شعرك المشدود في جرح الغد
والظل يشربني كما شربت عيونك
ضوء آخر موعد » (٢) .

وفي المظهر الثاني — ولعل خير مثال على ذلك ، قصيدته الطويلة « عاشق من فلسطين » يتدفق الصدق الوطني مع الشاعر وراء معشوقته الفلسطينية التي غطت ملامحها الأفق وماج في ركابها هتاف منغم حاد قاطع، أتى على كل ماتراخى في حنايا النفوس العربية ازاء القضية الفلسطينية بوجه عام :

« رأيتك ملء ملح البحر والرمل
وكنت جميلة كالارض .. كالاطفال .. كالفل
واقسم ،
من رموش العين سوف اخيط منديلا
وانقش فوقه شعراً لعينيك
واسما حين اسقيه فؤادا ذاب ترتيلا ..
يمد عرائش الأيك ..

---

(١) طالع المقطع الرابع من قصيدة « سقوط القمر » في يوميات جرح فلسطيني » صفحة ١١٩ .

(٢) نفس المصدر ونفس الصفحة . (ويمكن مطالعة قصائد اخرى مماثلة ، كقصيدة « الدانوب ليس ازرق » في ديوان : « العصافير تموت في الجليل » صفحة ٨٤ — ٨٧ او قصيدة « قراءة في وجه حبيبتي» صفحة ٧٥ — ٧٧)

ـ أكتب جملة أغلى من الشهداء والقبل :
فلسطينية كانت ولم تزل . (١)

يفتح الشاعر الدرب ، بعد طول صبر او تحفظ ، ويشحن فوقها كل هواسم الشوق والحب والحنين . فاذا بالمرأة هنا صورة الحب الدافق النضر أزهر في قلبه ، فأزهرت معه كل الصور الشعرية الحالمة .

ويمضي شاعرنا في نشيده مازجاً أبداً بين الصبوات المستعرة ومشاعر الثورة الغاضبة ، بين الانجذاب القلبي والتعلق بكل حبة تراب ، او حصاة تراب ، او ترنيمة تراب :

« فتحت الباب والشباك في ليل الاعاصير
على قمر تصلب في ليالينا
وقلت لليلتي ، دوري ! وراء الليل والسور ،
وانت حديقتي العذراء .. مادامت أغانينا
سيوفاً حين نشرعها
وانت وفية كالقمح ، مادامت اغانينا
سماء حين نزرعها .(٢)

وحينما يتذوق الدفء والحنان في أحضانها ، يطلق لخياله ولقلمه العنان .. فيعلو نشيده ، ليجتاح كل مكبوتات القلب الفني المعاني من عسف الواقع المرير الذي ألحق بكل فلسطيني شعوراً بالحقد والتنفيس الهادر مع كل سانحة . ولا يمثل محمود درويش هنا غير التجسيد الغنائي لكل ذلك :

« خذيني تحت عينيك
خذيني لوحة لوزية في كوخ حسرات

---

(١) « عاشق من فلسطين » : ص ١٠
(٢) نفس المصدر ص ١١ ـ ١٢

خذيني آية من سفر مأساتي

خذيني لعبة .. حجراً من البيت

ليذكر جيلنا الآتي ، مساربه الى البيت

فلسطينية العينين والوشم

فلسطينية الاسم – فلسطينية الاحلام والهم

فلسطينية المنديل والقدمين والجسم

فلسطينية الكلمات والصمت

فلسطينية الصوت

فلسطينية الميلاد والموت

حملتك في دفاتري القديمة

نار اشعاري

حملتك زاد اسفاري ...»(١)

لم يعد يبقى في صدر محمود شيء من شحنات الانفعال المكبل المحبوس في عتمات النفس وقفارها . الشعر هنا عوض به صاحبه أعواماً عديدة رزح فيها المواطن الفلسطيني تحت نير التحفظ والتستر ، فأزاح عن كاهله كثيراً من اعباء التشرد والبؤس والاغتراب مستبدلاً إياها برحيق الحب الثائر الجامع بين الحب والخبز والتراب .

اما المظهر الثالث من مظاهر المعاناة العامة فتجده تماماً قصيدة « يوميات جرح فلسطيني » التي بلغ فيها الشاعر أرقى مايبلغه شعر قومي ثوري ، لأنه ارتفع فيه من حدود البكاء والتوجع السائدين لحقبة طويلة في أدبنا العربي ، الى حدود التأمل والتمرد ، فالتصميم الواعي ، فالرفض الكلي لواقع النكسة – نكسة حزيران .

---

(١) « عاشق من فلسطين » ص ١٣ – ١٤

نحن في حلٍّ من التذكار
فالكرمل فينا
وعلى اهدابنا عشب الجليل
لاتقولي ، ليتنا نركض كالنهر اليها ،
لاتقولي !
نحن في لحم بلادي .. هي فينا ! (١)

قفزة جديدة وجريئة في درب التعبير الشعري الأصيل . رفض التذكار لأنه يفترض بعداً ، وهذا بدوره يفترض مسافات . والشاعر لايعترف بها ، ولا يعاني منها بل من حضوره الكلي فيها .

ويكمل محمود درويش الصورة ، صورة الرفض والسير بخطى واثقة . فقافلة الحب لم تتغير لاقبل حزيران ولابعده... إنها في طريقها الى الهدف الأبعد:

« لم نكن قبل حزيران كأفراخ الحمام
ولذا ، لم يتفتت حبنا بين السلاسل
نحن ، يا أختاه ، من عشرين عام
نحن لا نكتب اشعاراً ، ولكنا نقاتل » (٢)

وقد يكون هـذا الكلام رداً على بعض الشعراء الذين رأوا في نكسة حزيران امتحانا عسيراً فشل فيه العقل والقلم العربيان ، فغيروا من أساليب أدبهم وحملوه شحنات النقد والسخرية والشماتة ، امثال نزار قباني الذي طرح جانباً كل أشعار المرأة ، ووقف بعد النكسة معظم كتاباته على القضايا العربية ، وبنوع خاص قضية فلسطين .

---

(١) « يوميات جرح فلسطيني » ص ٣٣
(٢) « يوميات جرح فلسطيني » صفحة ٣٣ — ٣٤

فمحمود درويش ظل كما كان ، او بالأحرى ظل حبه كما كان قبل حزيران وبعده ، تأكيداً منه على ان العواطف الصادقة الأصيلة، لا تتغير بتغير الحوادث ، ولا تضعف بل تقوى مع الأيام .

كلمات الحب لم تصدأ ، ولكن الحبيب
واقع في الاسر – يا حبي الذي حملني
شرفات خلعتها الريح ..
اعتاب بيوت وذنوب » (١)

هكذا بكل اخلاص ، وبدون مواربة ، يشرح محمود درويش ظروف حبه الجديدة ...

ويشرحها اكثر من خلال المقطع التالي الذي يتضمن كل الاصرار والثورة على الواقع الدامي :

« عندما كنت تغنين ، رأيت الشرفات
تهجر الجدران
والساحة تمتد الى قصر الجبل
لم نكن نسمع موسيقى ،
ولا نبصر لون الكلمات
كان في الغرفة مليون بطل . » (٢)

من هذه النماذج ومن غيرها ، يمكن القول إن الحب الثوري المعاني ، هو الحب الاكثر تغلغلا في اعماق الشاعر ، والأكثر صدى في جوانب النفس . جمع فيه شتى احاسيسه الثائرة المضمخة بأريج الصدق والانفعال الحبيس الذي طوته الأعوام . فقجره محمود درويش اغنيات لا اعذب ولا اشهى ، بدل ان تتفجر خطباً جماهيرية لا تحمل الا ألفاظ التشدق الحاقد العاجز .

---

(١) نفس المصدر صفحة ٣٦

(٢) نفس المصدر ٣٧ – ١٨

وقد تكون قصيدة « انا آت الى ظل عينيك » أفضل ما يجمع هـذه الألوان من الحب الثوري ، وانصعها حساً وتفاعلاً ، هذه التي امتدت في ديوانه الصغير : « حبيبتي تنهض من نومها » لتحتل اكثر من ثلثه منسكبة في اودية شعره على خير ما يكون الاوار الداخلي لهيباً وترجيعاً لكل الركام النابض املاً وتوقداً، والمتجمع في اغوار النفس ...

« انا آت الى ظل عينيك .. آت
من غبار الأكاذيب .. آت
من قشور الاساطير .. آت
انت لي . انت حزني وانت الفرح
انت جرحي وقوس قزح
انت قيدي وحريتي
انت طيني واسطورتي
انت لي . انت لي .. بنواحك
كل صوت حقيقة
انت لي . انت لي .. بجراحك
كل جرح حديقة !
انت ليلي الذي يشتعل
انت شمسي التي تنطفىء
انت موتي ، وانت حياتي
وسآتي الى ظل عينيك آت !
وردة ازهرت في شفاه الصواعق
قبلة اينعت في دخان الحرائق
تذكريني .. اذا ما رسمت القمر
فوق وجهي ، وفوق جذوع الشجر
مثلما تذكرين المطر . . . » (١)

---

(١) « حبيبتي تنهض من نومها » صفحة : ٥٨ — ٦٠

وبذلك لا يترك محمود درويش ادنى شك في ان حبه لم يكن متعاً مترفة، يحترفها الحس ويتقنها الخيال وتزهو بها الألسن الساذجة، ولا قيماً فكرية عقيدية يحترفها الالتزام الجاف المتجه بعامته الى الادمغة الملتفة بالستائر الحديدية، لا تنفث الا اللهب والدخان ...

انه الحب المتداخل هنا وهناك ، المتفتح مع كل خفقة نسم في الوجود . المتقلص مع كل واحة وانحسار ، المتماسك في الشدائد ، القانع بالقوت الزهيد ، والشامخ ابداً الى منفسح العيش الرغيد ، بكل ما يحمله الرغد من معاني السعادة والارتياح الاعمق...

مشهد جانبي .. من محاكمة عصرية

محمد أحمد العزب
القاهرة

إعلان المتهم

يرفض فلسفة التطويق !!

يرفض أن يولد منذ البدء على أبواب محاكم تفتيش العالم !!

او ان يتسكع في ردهات التاريخ الحدباء ..

مضيق .. يسلمه .. لمضيق !!

يرفض فلسفة التطويق !!

يرجونا ان نسقط معه في اغوار الأشياء !!

يصرخ .. همجيا .. همجيا ،

سفن الأعداء تغني في كل موانئنا الخضراء !!

تهجونا .. حتى بالصمت المفروض على سارية الضوء !!

تدعونا لوليمة قيء !!

يقتحم علينا ملاحوها الحانات !!

يبصق قائدهم في اكام المارين على الطرقات !!

ينفينا من فوق المسرح في اغوار الضحكات !!

يركلنا في لحظات الشبق التحتي !!

ويصادر كل جرائدنا في ايدي الباعة بالنظرات !!

هذا المتهم الماثل خلف القضبان

متهم بالشغب الفكري !!

متهم بالتجديف !!

ومتهم بالإيمان !!

اعترافات المتهم

لا أنفي !!

علقت المنشورات على الجدران !!

خبأت مظاهرة في بيتي ..

حتى مر السلطان ..

فأسقطنا اعقاب التبغ على السلطان !!

ناوبت الشرطي الحارس ..

كي اتمكن من تصحيح التاريخ الدائخ في الأسواق !!

وبصقت على قاعدة النصب التذكاري ..

بصقت كما اهوى مجنوناً في كل الأحداق !!

ضاجعت الشارع والمخدع !!

قايضت الله !!

وهل اروع من ان نتقايض ؟؟

باسم القانون فعلت ..
فعلت بقانون الأسماء
سميت العدل الرائع باسم العدل !
سميت السيف .. السيف !
سميت الخوف .. الخوف !
سميت هزيمتنا في التاريخ ، هزيمتنا في التاريخ !

كلمة المدعي العام

ماذا يبقى ؟؟
هذا المتهم يمارس قتل أدلته بين يديه !!
يسترخي في الثرثرة ويجلد كل ظهور الاشياء !!
يحرق آخر زورق !!
يستجدي ان تلد الآلام العارضة جنين الآلام الاعمق !!
يقعد من تحت سماء الله ويلعن كل نجوم الليل !!
يحرف اقدام التاريخ عن الناموس !!
يبحث عن كل الكلمات الرافضة لمعناها الوهلي ..
ويخبئها في جيب القاموس !!
يطأ الاعراف !!..
ويضحك ملء رئات العالم !
هذا المجنون !!..
يبكي !!..
باسم الحرية !!..
لا باسم القانون !!!

خطبـــة الدفـاع

ارجو ..
ان تخلي تلك القاعة من كل الحراس !!
ارجو ان نفتح للمتهم تخوم العالم ..
لا ان نرميه فاصلة بين الاقواس !!
ارجو .. ان نرفع عن كل الكلمات اللعنة منذ البدء !!
كلمات المتهم .. وعفواً ...
جمل معترضة !!..
في لغة مسحت من فمها كل الكلمات المعترضة ..
وارتفقت نصف اللغة الصمت ..
ونصف اللغة المنقرضة
هذا المتهم الرائع .. ليس بريئاً ..
لو كان بريئاً ..
ما كنت أجشم هذا العصر عناء الأحزان عليه
هذا المتهم الرائع انسان العصر
يعطيكم .. بطلا .. وقضية
يعطيكم رأساً تحمل كل شجيج الباعة في الطرقات،
يعطيكم صوتاً مكتنزاً بألوف الأصوات
يعطيكم قبضته الضاربة بسيف الشحاذ الأعمى
وبسيف المجنون الراقص — في كل الحانات الحبلى
بقوائم كل الرايات
يعطيكم عصراً غير العصر
يعطيكم فلسفة التاريخ ..
ولا يعطيكم تاريخ الفلسفة المشبوه

هذا المتهم الرائع .. منذ البدء ..
أسقط لافتة الحرس ..
وجاهر بالعصيان
أرجوكم ..
حين يجن الليل ..
ويأوي أبناؤكمْ للاحضان
أن تقفوا ضد ارادات الموت الهمجي
وضد سقوط الفرسان

النطـــق . . بالحـــكم

باسم القانون
وباسم العدل
تصدر في المتهم المشاغب ..
حكماً .. بالقتل

تعليق . . أخـــير . . للمتـهم

وا أسفا
قانون الاسماء اختل
قانون الاسماء اختل

نشيد الفدائي العربي

نذير الحسامي

قسَماً بالجرح ، بالدار السبيّه بالدم الثائر يغلي بالحميّه
لن يراني النجمُ في ليل الرزيّه غير بركانٍ على الأرض الأبيّه
اقذف الهول وامشي بالمنيّه

قسَماً بالترْب بلّته الدّما بالمغاني الحمرُ ، ارضاً وسَما
لن ارى الا الفتى المقتحِما اشرب النار فيبتلّ الظما
واغنّي بزئير البندقيّه

عاصفُ الخطو ، فدائيُّ المُنى تعرف الدنيا وتدري من انا
انا من هزّ ضمير الجُبّنا انا من ضاء جحيماً وسَنا
غُرّة البأس ونبع الأريحيّه

قسَماً بالقدُس ، بالربع الكريم بالجنى ، بالطيّب من تلك الكُروم
يافلسطينَ الهوى لن تستنيمي لحَنا باغٍ وشيطانٍ رجيم
أنا قُربانك فاحيَيْ بالضحيّه

أنا ألتفّ بجرحي في الليالي جاعلا من مهجتي درع نضالي
وأذيق المعتدي طعم نكالي أحرق الدنيا عليه لا أبالي
بشظاياه ، وفي قلبي الشظيّه

أطأ الجمر ولا أستسلم   ماردٌ ، تحت الدجى ، منتقِم
جرح أهلي في دمي يحتدم   فليُضيء ُ ناراً بأيامي الدم

ولأمتْ حراً لكي تحيا القضيّه

في عُروقي جُنّ ثأرُ العربي   من عدوٍ للحمى مغتصب
تَحرُقَ الحقدُ على العدوان بي   ان حقدي في الليالي كوكبي

بالشارات الجراح العربيّه

نُصْبَ عينيَّ وقلبي أبداً   حيثما راح خيالي وغدا
عزّةُ البيت وأهلي بالفِدا   وثبةُ الجرح على قيد الردى

ضحكةُ الطفل وأحلامُ الصبيّه

بيدي أكتب تاريخ خلاصي   لم تهُن ناصيتي بين النواصي
يا أخي في موطنٍ دانٍ وقاصِ   يخرس البغيُ على نطق رصاصي

فاسمعي ياطلعة الصبح دويّه

ترقد الأشياءُ الا مُدْيتي   وينام الكون الا مهجتي
أنا قلب خافق في ليلتي   صائح ، لبيكِ ياحرّيتي

الفدا مني فهل منك التحيّه ؟

التيارات الفكرية

مِن أوراق الأسفار

تحت أعين بوذا

د. عبد السلام العجيلي

كاتماندو – النيبال

تحدثت مؤخراً في مقال لي نشرته احدى المجلات الاسبوعية ، في معرض كلامي عن ضيق الغربيين بحضارتهم الآلية ، عن حج الهيبيين من شباب الغرب الى كاتماندو ، عاصمة النيبال ، بحثاً عن طمأنينة الروح وهدوء النفس أحياناً ،وعن الحشيش والماريجوانا في بلد لايعتبر تعاطي المخدرات ولا تجارتها عملاً منافياً للأخلاق والقانون ، في احيان اخرى . .

حين كتبت كلامي ذاك ، منــذ بضعة اسابيع ، لم يخطر في بالي أني سأكون في فترة قريبة بين قصّاد هذه المدينة النائية ، المدينة الغريبة ، كاتماندو . ولكن ما لم يكن في البال قد حدث . فها أنذا الآن هنا ، في عاصمة النيبال ، أكتب هذه السطور في حديقة فندق «سوالتي» المشرف على المدينة، وسلاسل جبال

الهيمالايا التي تحضنها تحيط بي من كل ناحية ، تقع عيني عليها كلما رفعت بصري ، ومن بعيد تلتمع في قمة أحد الجبال الذروة الذهبيـة لمعبد سوايا مبونات ، حيث تتطلع منه أعين بوذا ، في كل وجه من وجوه المعبد الأربعة ، الى كل الجهات .

الصبي والوردة

حقاً أنا في كاتماندو ، ومنذ أمس . قدمنا اليها من بانكوك فنزلنا فيها في مطار صغير افتقدنا عنده سعة المطارات التي نعرفها في عواصم العالم ، وتلك التي مازالت تستقبلنا وتودعنا منذمطلع هذا الشهر . ومع السعة افتقدنا التنظيم وافتقدنا ، قبل كل شيء ، النظافة ...

كنت أعرف اننا سنفتقد كل هذا في كاتماندو ، وحذرت منه رفاق الرحلة . وعلى الرغم من تحذيري فقد صُدم الرفاق بما رأوه . صدموا بالصبية الصغار الذين تحلقوا حولنا يطلبون البقشيش في المطار ، وبروث البقر يملأ الأزقة وتختلط ذراته بالغبـــار الذي يتنفسه المارة . وصدموا بالبقر المقدس ، وكل بقرة في كاتماندو مقدسة ، يفترش عرض الطريق فلا يملك سائق التاكسي غير أن يحيد محاذراً أن يدهسه أو أن يؤذيه : قتل بقرة في كاتماندو يعني سجن عشر سنوات ، ومجرد ايذائها يقتضي طرد المؤذي فوراً من كل الأراضي النيبالية !

صدم رفاق الرحلة بكل هـذا . وقد أكون صدمت به أنا معهم ، على الرغم من معرفتي المسبقة بفقر البلاد وقلة التنظيم فيها وقذارة اهلها . فالعيّان يظل أبداً أقوى أثراً في النفس من الخـــبر . الا أني كنت اعرف فوق هـــذا أن كاتمندو مدينة رائعة في بدائيتها ، وفي جمال طبيعتهـــا ، وفي وداعة أهلها . وكأن الصبي الصغـــير الذي قطـــع علينا الطريق عند وصولنا أراد أن يعرّفنا

بكل هذا عن بلدته في لمحة واحدة . استوقفنا ذلك الصبي على باب المطار وألح علينا في طلب البقشيش ، ونحن نرده ، حتى ضايقنا . وفي آخر الأمر أشار الى وردة يانعة كانت مضيفة الطائرة التايلاندية أهدتهـــا الى رفيقي عند ركوبنا الطائرة ، فأعطيناه إياها . اخذ الصبي تلك الوردة وزرعها في فتحة قميصه المهلهل ثم ابتعد عنا راضياً ومغتبطاً كأننا اعطيناه ، حين اعطيناه تلك الوردة ، الدنيا كلها . .

وادي الآلهة

يسمي اهالي النيبال الوادي الذي تجثم فيه كاتماندو في حضن الهيملايا وادي الآلهة . في كل زاوية منه تمثال وعلى كل رابية معبد ، وتختلط فيـــه البوذية بالبراهمانية في مزيج عجيب ، وتتكاثر فيه أوثان الديانة الهندوكية تحت أعين بوذا العظيم في تسامحه ورحمته ودعوته الى حب الناس اجمعين .

امس مساء تجولنا في المدينة فوصلنا في وسطها الى كتلة من المعابد المنهبة المخضبة بالألوان الصارخة ، ورأينا بينها معبداً غريباً بناه احد ملوك كاتماندو القدماء حينما ازعجه انصراف الناس الى الترهب وعزوفهم عن الزواج عزوفاً تسبب في قلة النسل وتناقص عدد السكان في المملكة . لقد أمر ذلك الملك ببناء هـذا الهيكل وبأن تملأ جوانبه بمنحوتات تمثل الرجال والنساء في اوضاع جنسية مثيرة لتدفـــع الناس الى التواصل والانسال . تلك المناظر المنحوتة لاتزال قائمة حتى اليوم ، وهي تبلغ من الصراحة ما يجعل المرء يحكم برؤيتها على اهل كاتماندو بأنهم جمعوا قذارة النفوس الى قذارة الاجساد . ثم لايلبث الاستنكار ان يزول بادمان النظر وبالإلفة ، ويحل محله العجب من اهل هذه المدينة الذين يضعون كل هذه الصور الفاضحة في معبد ، ثم يؤلـّهون الطهارة والبراءة في معبد آخر ، لايبعد عن الاول غير خطوات في شخص صبية صغيرة يعتبرونها إلاهة حية .

نعم، ان لأهل كتماندو إلاهة حية . انها صبية لا يتجاوز عمرها اليوم خمس سنوات ، يعتقد الناس هنا ان الروح الالهية حلت فيها وستظل فيها حتى تبلغ سن النضج الجنسي . حينذاك تفارق الصبية تلك الروح ، فتنزل عن عرش الألوهية لتحل محلها إلاهة حية اخرى لم يدنس جسدها بالبلوغ ...

ليست حكاية هذه الإلاهة خيالا . لقد زرناها في قصرها الذي تقيم فيه منذ اختيار الرهبان المخولين ذلك لها ، فأطلت علينا من الشباك تتطلع الينا ونحن دونها في ساحة القصر . انها طفلة في الخامسة ، مثل سائر الصبايا في سنها ، لعوب ضحوك ، قد وصل مابين ملتقى جفنيها وصدغيها بخطين من الخضاب اسودين طويلين ، تلبس ثياباً عادية ، ويحيط بها صبيان من لداتها ، بينما يمنع اهلها من الاختلاط بها او من رؤيتها الا كما يراها عابدها الآخرون . حتى ملك النيبال وملكتها يزورانها في المواسم الدينية ليتلقيا بركة هذه الطفلة المسكينة التي ستظل سجينة ألوهيتها حتى تبلغ الثانية عشرة من عمرها او الثالثة عشرة ، لتصبح بعدها امرأة مثل سائر النساء .

كيف اصبحت هذه الطفلة الاهة ؟ ولماذا وقع عليها الاختيار دون بقية الاطفال من لداتها ؟ و كيف يؤمن اناس عقلاء خالطوا ودرسوا وفكروا ، مثل دليلنا الذي كان يرافقنا في زيارتها ، بألوهية صبية غرة مثل هـــذه ؟ تلك اسئلة تواردت على خواطرنا وعلى السنتنا ، عرفنا بعض اجوبتها وظل بعضها الآخر رهيناً بأسرار النفس الانسانية التي لم يبلغ العقل والمنطق كل اغوارها .

وجوه كاتماندو المتعددة

بوذا وبراهما ، وفيشنو وشيفا و كرشنا ، والإلاهة الحية ومعبد الاوضاع الجنسية الفاضحة ، هي بعض وجوه مدينة كاتماندو الاسطورية . ومن وجوهها

هؤلاء الشباب الزرق العيون، والفتيات الذهبيات الشعور من فرنسا وامريكا والسويد، الذين رأيناهم يسيرون كالأطياف زائغي الانظار ساهمي الوجوه بتأثير الحشيش والاغراق في التأمل . ومن وجوهها القرود التي تتواثب على قمم المعابـــد مختلطة بالزائرين ، لايستطيع احد ان يشير اليها اشارة مؤذية لئلا يستجلب عليه لعنة الاله السعدان . ومن وجوهها « الشيربا » الذين وطئوا قمة افرست قبل ان يطأها سير ادموند هيلاري ، و« الغوركا » ذوو السواطير الرهيبة الذين اوقفوا بريطانيا العظمى عند حدها واحتفظوا ببلادهم حرة مستقلة حتى في جهلها وتخلفها . كل هذه وجوه جعلت كاتماندو بلدة لامثيل لها بين البلدان ، لايهمها ما يأخذه عليهـــا الناس من عيوب ، مادامت اعين بوذا الثماني تطل عليها من أعلى معبد سوايامبونات الذهبي وتغمرها بنظراته الحانية الحادبة .

* * *

جورج لوكاتش المتعطش للحقيقة

بقلم: استفان ايروسي

ترجمة: محمّد أسامة القوتلي

لوقيّض لي أن أناقش معه مقالي المقترح هذا ، لوجّه بكل تأكيد انتباهي الى طبيعته الموضوعية . كان سيقول : « لأن هذه الطبيعة لن تبدلها على الاطلاق حقيقة كوني قد قضيت . » وسأجرؤ على الاعتراض بأن موته لابد أن يكون له تأثير عاطفي أكيد في المؤلف وبلا شك في قراء هذا المقال ، عند تحديد موقفهم من الموضوع . لأن هذا الأخير سيظهر ، بسبب واقعة الوفاة نهائياً ومغلقاً ، ولن نكون مهيئين له . وكان سيجيب : « كل هذا محتمل جداً ، لكن تهيئتنا كان لشيء وواقع الموضوع هو شيء آخر تماماً . والموضوع لايتغير بسبب حالة استعدادنا ونوعيته . »

* * *

موضوع هذا المقال ، وهو حياة وأعمال جورج لوكاتش الفيلسوف والجمالي والثوري العملي ، كثيراً ماشغل لوكاتش نفسه ، فقد اعتبر نفسه على نحو صارم

نتاج التاريخ والمجتمع الذي عاش فيه ، وكان هذا واحداً من الفوارق الصحية بينه وبين غالبية تلامذته ومعارضيه . إن التوطئات المكتوبة للمجلدات الأولى لمجموعة مؤلفاته بالألمانية ، هي دراسات بارعة لايديولوجي يحمل نفس الاسم كان قد عمل منذ بضعة عقود خلت . واعتقدت ان بعضاً من احكامه ، وخاصة تلك التي أبداها في : «نظرية الرواية Die Theorie des Romans» وفي : «التاريخ والوعي الطبقي- Geschichte und Klassenbewusstsein» كانت أحكاماً قاسية جداً . قال: « انظر ، لم أعلن مطلقاً بأن تلك المجلدات قد خُطَّت من قبل شخص غير موهوب، وبأنها ما زالت مجرد مزيج من ... » ومضى في نقده للمجلدات . فكرت في نفسي : « إنه ينتقد أعماله ذاتها ، هذا حسن ، ولكن لم يسر كثيراً بالنقد ؟ »

لم يستطع أن يفهم أبداً اولئك المؤلفين الذين انفقوا وقتهم في تصحيح نظرياتهم الخاصة . فالفيلسوف يجب أن يلح على الحقيقة بدلاً من أن يلح على حقيقته هو . وأصبح مثلاً الأكثر تقديراً لسارتر ، بسبب آرائه الأخلاقية والسياسية، ومع ذلك فغالباً ما أنحى باللائمة عليه لأنـه لم يجربه مجرد استخلاص النتائج الفلسفية لتطوره السياسي ، ولأنه جمع أشد الاتجاهات تنوعاً في فلسفة سارترية موحدة زائفة .

لوكاتش ليس عرضة للتهمة نفسها . اذ تخلى وبدون أدنى غرور ذاتي ، عن نظريات وأساليب فكرية ايضاً بمجرد شعوره بتخطيه لها . وعلى هذا النحو أعطى التاريخ ثلاثة لوكاتشات على الأقل : المفكر المثالي والماركسي الثوري المُخلِّص والممنهج Systemetizer الاخير الذي كان يتوق الى النهوض بالايديولوجية الماركسية بعد كبوتها خلال الحقبة الستالينية . ولكن كان هناك بعض اللوكاتشات « الانتقالية » ايضاً . لوكاتش الفترة الستالينية الذي اتخذ موقف : « حزبي مصيباً

كان أم مخطئاً » ، عندما كان هتلر يتقدم ، وكان وفياً لستالين مجازفاً لدرجة التضحية بأعمال حياته كلها . وبالطبع ، لم يكن في الوقت نفسه قادراً تماماً على التنكر لمؤهلاته كمفكر ، فعمل ، مع قلة آخرين ، انطلاقاً من صعيد التضامن الاساسي مع ستالين ، على المحافظة على استمرار الماركسية بضروب شتى من التسويات .

* * *

أي لوكاتش إذاً هو اللوكاتش الحقيقي؟ صدّر لوكاتش مقالتي سيرته الذاتية في العام ١٩٣٣ والعام ١٩٥٧ بالعنوان المماثل: طريقي الى ماركس Mein Weg Zu Marx وقد يصح وضع هذا العنوان لمشروع بحث مجتزأ يرجع الى الأشهر الاخيرة من حياته ، كتبه عن سيرة ذاتية روحية متصوَّرة . واذا استطاع انسان أن يرى حياته كطريق – واناس مثل هؤلاء يعدُّون بحق سعداء – فهو بالتأكيد مصيب في الاعتقاد بأن ذاته الحقيقية تتكشف عندما يدنو من الهدف . وبالطبع فقد أعرب لوكاتش ايضاً عن رأيه المؤيد للفترة الأخيرة من حياته كلما دعا الامر . ولعله كان يجري في سباق مع الزمن من اجل هذا: وعليه في مؤلفاته الثلاثة الاخيرة، علم الجمال، وعلم الوجود، وعلم الاخلاق ، أن يبلغ منتهى مطافه ماركس يومه وعصره .

ومن سخرية التاريخ أن هذه المؤلفات لم تنجز الا جزئياً . إذ حال دون اتمامها الافتقار الى خارطة اقتصادية تفي بالغرض عن مجتمعات الوقت الحاضر ، والصعوبات الشخصية والموضوعية لفهمه ، المستحيلة التذليل تقريباً ، وأخيراً وليس آخراً ، حقيقة أن لوكاتش نفسه لم يبدأ في الفصل بين ماهو كائن Sein وما يجب ان يكون Sollen منهجياً في كل مجال إلا في المرحلة الأخيرة من حياته . وسخرية

أخرى للتاريخ ، ففي الفترة الزمنية نفسها ، تحول الاهتمام بصفـــة أساسية لدى حركات أجنحة اليسار الى لوكاتش الآخر ، الى لوكاتش الثوري المخلّص الذي قرن مادیته الجدليـة ، اي قوته التحليلية الموضوعية ، بما يجب ان يكون Sollen ، وهو مطالب الثورة العالمية . باستطاعة اليسار اعتبار هـذا اللوكاتش ، اللوكاتش الحقيقي اليوم ، لأن اليسار نفسه اصبح هو الآخر مريضاً ومتعباً من جو التسويات الموبوء . وقد طمح اولئك اليساريون في وجه حقائق مزعجة ، كما حدث للوكاتش تماماً قبل نصف قرن ، الى ممارسة ثورية ، تلك حقيقة (مأخوذة عن فيشته) بأن « الحالة تزداد سوءاً نتيجة للحقائق . »

والخلاص من اسطورة الحقائق بواسطة العمل هو الانحياز الى جانب الطريقة Method ضـــد النظام (المنهاج) System ، ما دامت الطريقة اي الجدليات ، هي الثورة ذاتها .

* * *

لكن لوكاتش العجوز وهو الذي تابع الحركات اليسارية المختلفة بعطف كبير، انتصر لأولوية الطريقة . فقد كرر في مقال كتبه العام ١٩٦٧ لدى اعادة نشر: التاريخ والوعي الطبقي Geschichte Und Klassenbewusstsein التأكيد على احدى الاطروحات Theses الأساسية لكتابه القديم : « لنفترض جدلاً أن التجربات الحديثة أظهرت مرة واحدة وللأبد بطلان كل اطروحة من اطروحات ماركس الشخصية ، وحتى وإن ترتبت البرهنة على هذا ، فكل ماركسي جدّي سديد الرأي Orthodox سيكون مستعداً لقبول تلك المكتشفات الحديثة كافة دون تحفظ ، وسيرفض أطروحات ماركس جميعاً دون أن يتوجب عليه التخلي

عن عقيدته الماركسية للحظة واحدة . وبنـــاء عليه فالعقيدة الماركسية لاتوحي بالقبول اليقيني لاستقصاءات ماركس . فليست (إيماناً) بهذه الاطروحة أو تلك ، ولا هي تفسيرات كتاب (مقدس) ، بل العكس فالعقيدة في الماركسية تتعلق بالطريقة Method تعلقاً كلياً » .

هذا التعبير عن الايمان بأولوية الطريقة يقلل الى حد ما من التناقضات بين مختلف « اللوكاتشات » . وفي معرض البحث عن « اللوكاتش » الحقيقي يلفت هذا التعبير الانتبـاه الى تلك الخصائص التي امتاز بها ، والى صلته بالحقيقة في كل فترة من فتراته .

★ ★ ★

إن نقاده المفرطي الحساسية الراغبين أشد الرغبة في إثارة أتفه الاعتراضات حول اسلوبه (دون تكليف أنفسهم عناء قراءة كتاباته قراءة كاملة) ، فاتهم الشعور بسعادة الاكتشاف وادراك ما خفي في طريقة الكتابة الموضوعية والجافة أحياناً بشكل مدروس . والجماليون ، وهم سادة الماضي في اكتناه بديعيـــات التفاصيل ، شككوا بتحسسه البديعي . ومع هذا برهن لوكاتش نفسه في شبابه على ادراك وأصالة فائقين لدى معالجته علاقة تاريخ العالم والشكل الفني ، وهي اكثر المشكلات الجمالية اساسية واكثرها اهمالاً . وكماركسي قدّم فيما بعد نظرية شاملة وملهمة عن العلاقات المتبادلة بين الاثنين . عديدون اليوم طبّقوا طريقته كأمر بديهي ، وكثيراً ما بسّطوها على نحو مدرسي ممجوج . لكن القادرين على القراءه لابد ان يتنبهوا الى شعور الفيلسوف بالبهجة الناجمة عن مقدرته على ربط حدثين غير مترابطين ظاهرياً ، كحروب نابوليون وظهور القصة التاريخية مثلا . انها بهجة تقارن بتلك التي تنتاب الشاعر الذي أفلح في توحيد صورتين قصيّتين في

تشبيه واحد . هذه البهجة تعود عند لوكاتش الى اكتشاف علاقة موضوعية والتعبير عنها ، انها ناشئة عن الادراك بأن العالم مليء بالمعاني حتى عند خلوه منها ، أي هو قابل للفهم والتغيير . وتتابع هـــذه البهجة وسط حقائق تبعث على الضيق وقد لاتحتمل . انهـــا بهجة الكمال في عصر تتجه فيه المصالح الخاصة لتجاوز مصالح الكل ؛ وتميـل اللحظة الى حجب العمليـــة Process ، أي نظرية التكتيك Tactics Theory ، والحقائق الانسانية الفردية .

* * *

تبعت متعـة الكمال الآسرة لوكاتش في كل مرحلة من تطوره . الامر الذي قاده الى التجربتين الفكريتين الحاسمتين لشبابه : الى الشاعر الثوري الكبير آدي Ady (١٨٧٧ — ١٩١٩) الذي « أراد كل شيء » ، كما قال في احدى قصائده الرائعة، والى الفلسفة الالمانية الكلاسيكية ، وأولاً الى هيغل الذي ادعى بأن « الكل فقط يمتلك حقيقة فعلية . » وبوضوح تام رأى لوكاتش نفسه الصفة المميزة لتطوره المبكر . كانت نظرية المعرفة epistemology المحافظة والمثالية للفلسفة الالمانية الكلاسيكية موحدة بالنسبة له مع علم الاخلاق اليساري ، وهي وحدة تتمثل فنياً في آدي . من هذين المفهومين للكمال المندمجين بطريقة خاصة به فحسب ، كان هناك خط مستقيم قاد الى ماركس تحت وطأة احداث التاريخ الشامل . وبصرف النظر عن تفسير ماركس لتاريخ العالم ، فقد ادخل أيضاً تغيير العالم، أي التطبيق الاجتماعي، على فكرة الكلية الفلسفية . ولجورج لوكاتش عنى ذلك اختياره بالدرجة الاولى « العيش في خطر » . لم يكن اختيـــاراً بالمدلول التهوري الرومانتيكي النيتشوي للعبارة ، بل بمدلول عادي جداً ؛ فعوضاً عن مهنة جامعية أو بدلاً من تحوله الى طالب علم خاص، اختار الحركة . هذا معناه اختياره

اللا استقرار الدائم في الحياة والمهاجرة والعمل السري والاخطار الجمة التي تهدد شخصه من جراء هـــذا . اكثر اهمية من ذلك ، اضطراره لتوسيع مسؤوليه الشخصية والفكرية كايديولوجي لتشمل نشاطات الحركة كافة . ومنذ العام ١٩١٩ قبل انضمامه الى الحزب ، قوّم المعنى الكلي لقراره . قال : « كل من يختار الشيوعية ملزم أخلاقياً بتحمل مسؤولية شخصية عن كل حياة تفقد في النضال من أجلها و كأنه قتل كل واحدة منها بنفسه . ومن جهة اخرى ، فكل من ينضم الى الطرف المقابل ، يجب أن يتحمل المسؤولية الشخصية ذاتها من اجل استمرار بقاء الرأسمالية ، من اجل الخراب الذي تسببه حروب الانتقام الامبريالية الجديدة.. الخ ، التي ستتبع لامحالة ..»

منذ ذلك الوقت المبكر رأي بوضوح ألا مندوحة للفرد من الاختيار بين شرور مختلفة في احوال تاريخية معينة وهو يختار بصواب اذا ماضحى بذاته الدنيا على مذبح ذاته العليا ، على مذبح الفكرة . » واختار لوكاتش هـــذا ساعده في مجتمع انتقاه هو نفسه بمحض ارادته الحرة ، وفي هدف ملك عليه حياته بأسرها . وعندما انقلبت الحركة في مابعد على مصالحها الخاصة ، اختار لوكاتش بكل ثبات طريقاً اعتبرها « الأهون شراً » : فقد ناور واجرى تسويات تكتيكية و كيّف نفسه حسب الامكانات المفروضة . سبقت الاشارة الى الدوافع السياسية الاجنبية والى الأسباب التاريخية العالمية لهذا التكيف ؛ لكن الصعوبة هي أن التكيف « الخارجي » أضحى في النهاية « داخلياً » الى درجة غير قليلة . إذ اضطر لوكاتش وهو المتعصب للحقيقة فلسفياً وفطرياً ، لأن يضع لنفسه نظاماً معقداً من الذرائع الأخلاقية والتكتيكية ليقدر على خداع نفسه بالنسبة للأصل الواقعي لبعض مظاهر الحقيقة المحيطة به . وكما في حالة أسلافه العظام في الفلسفة ، ادت هذه المناورة الى بعض التناقض بين نظام مفصّل للفكر وبين الطريقة الثورية الجدلية . وكان لها

انعكاس مأساوي على اعمال لوكاتش فلم يعد على مدى عقود من الزمن يكتب سوى مقالات ودراسات جزئية عوضاً عن مؤلفات اساسية في جميع Synthesis والمنهجية Systematization وهي تتلاءم وموهبته تلاؤماً تاماً . وقد يكون كانسان فرد خدع نفسه في بعض القضايا، لكنه كطالب علم امين جداً كان ابعد من أن ينشيء نظاماً فلسفياً على اسس من التكييف الذاتي الخارجي أو الداخلي . وهكذا فلم يتمكن من كتابة مؤلفه علم الجمال الذي اشتمل على نظرية التأمل خلف عالم الفنون بأ كملها ، إلا بعد أن زالت تناقضات النظام والطريقة بوقت طويل . ولم يتوفر له الوقت ليكمل كتابه علم الوجود بطريقة يرضى عنها . ولكتابة : علم الاخلاق .

واذ اختار لوكاتش — كما فعل — الأهون شراً ، لم يشأ أن يربط نفسه بالجرائم التي اقترفتها الحركة ضد نفسها . وقناعتي ان هذا هو سبب طرحه نظرية الأنصار التي هوجمت في الماضي كثيراً جداً وبعنف شديد. ورغم انه طبقها على الشعراء فهي تنطبق ضمنياً على الفلاسفة ايضاً : ان الشاعر والأيديولوجي ليس قائداً وليس جندياً ، بل نصيراً في الحركة .

* * *

حسن جداً كل هذا ، لكن الأنصار رفقاء متعبون وقت السلم . غالباً ما أطلق لوكاتش على نفسه اسم المؤلف المزعج. وهذه ظاهرة اخرى تميزه في مراحله كافة . فمنذ بداية عمله وقف وحيداً بنتاجه الفكري النظري ، ضمن الحركة المجرية البورجوازية — الليبرالية المتحلقة حول مجلة الغرب (Nyugat). وشعر المفكرون المجريون الأقل ميلا الى الفلسفة بغرابة نزعته الفكرية وبافتقارها الى الحياة ايضاً . الى جانب هذا كله كان تطرفه السياسي الذي نُظر اليه بعين الشك من قبل الناطقين

البارزين في مجلة الغرب ، مع بعض الاستثناءات . وبقي الى آخر سنوات حياته فخوراً بأنه كان محتملا داخل معسكره هو ، وان لم يكن محبوباً .

بعدئذ وكشيوعي في المنفى ، وجد نفسه تكراراً في وضع مماثل . كان يعرض حقائقه في اوقات غير ملائمة. وبما انه مفكر عقائدي شيوعي ، فقد استثار أقذع الهجمات من جهات متنوعة وكثيرة في الوقت نفسه . كثير من عقلاء ممثلي النخبة البورجوازية وجدوا فيه خائناً للفكر ؛بعضهم دعاه بولشفيك غوباز،وآخرون أنزلوه الى مرتبة جدانوف Zhdanov، واعتبره المتحجرون عقائدياً Dogmatists تعديلياً Revisionist او متحذلقاً هيغلياً. ولم يكن باكثر حظاً مع انصاره القلائل ايضاً . كانوا يستخدمون افكاراً لدعم آرائهم بصياغة مقوماتها من انصاف عباراته. وسره كل ذلك في الغالب اكثر مما اغضبه . وكان يقول برضى : « علقت في حلوقهم ، فلا هم بقادرين على بلعي ولا هم بقادرين على بصقي » . وكان يستطيب عموماً تسطير بعض الحقائق المزعجـــة وانتظار ماتحدثه من أثر وكأنه يستهدف بعض الأذى .

التأثير حدث احياناً سريعاً جداً . أتت الصواعق من غيوم الغباوة كثيفة وسريعة رداً على الحقائق المزعجة التي أعلنها في اوقات غير مؤاتية او خاطئة . أو، اذا استخدمنا تشبيهاً أقل جاذبية ، نقول : في اوقات كان فيه مخزون البيض الفاسد لبلد او لكتلة في حزب قد استنفد جميعه في الرد على لوكاتش . وقلمـــا استرعاه ذلك . كان احد اسباب تشامخه انه لم يقدّم اجلال الكاتب الى ما يدعى بالرأي العام ، الى هذه الغباوة الكبيرة ذات الوزن الثقيل حتى في وضعها غير المنظم. وفي احدى المناسبات وكان ذلك في العام ١٩٥٥ ، اخبرته وقد استبد بي الغضب عن

افتراء مقيت بصفة خاصة . بعد لحظات من التأمل قال : « انظر ، لقد قلت دوماً انني مادمت غير موجود هناك ، فلا ابالي ان هم شنقوني . »

ان تفرُّد لوكاتش في حركة انضم اليها هو نفسه ليضع حداً نهائياً لعزلة مضنية ، جدير بالتحليل : وانا استخدم التعبير « تفرد » عوضاً عن تعبير « توحُّد » الاكثر اتباعاً ، لأن لوكاتش كانسان لم يكن في حياته الخاصة والعامة متوحداً. كان من طبعه وضع حياته الخاصة على مرأى من تاريخ العالم . ومع ذلك فلم يكن عبثاً انه اعتبر واجب الفلسفة والفن معاً تحرير الانسان من صفاته الخاصة والسمو به الى مستوى الجنس البشري .

واتجاهه نحو العودة الى البداية (Ab Ovo) هذا حال تماماً دون شعوره بالتوحد. لكن تفرده دل على مسألة علاقات موضوعية وليس على شعور شخصاني نحو العالم. كان وجود التشامخ بصفة مستمرة ــ رغم غيابه عن عمد احياناً ، في عصر تطلب ، خاصة من اشخاص ذوي احساس شديد بالجماعة ، بعض التكييف الذاتي وانكاراً زهدياً تقريباً للشخصية .

ولا بد ان يكون ذلك الترفع هو الذي استرعى نظر توماس مان الثاقب عندما اعطى نفتا Naphta في كتاب « جبل السحر The Magic Mountain » العديد من سمات لوكاتش المميزة . ونفتا راهب يسوعي يحظى باحترام كبير عند رجال رهبنته ولكن بالرغم من تواضعه الفكري السامي ، فهو جسم غريب ضمن جسم مجتمعه الكهنوتي . انها لحقيقة ساخرة ومع ذلك فهي بالأحرى حقيقة ذات دلالة ، أن لوكاتش نفسه ، وليس شخصاً غيره ، لفت الانتباه الى مظاهر شخصية نفتا الفاشيستية في جوهرها . بالطبع كان يعرف من هــو انموذج توماس مان ، لكنه اعتبر ان مكان أخذ الكاتب لنماذجه هو من شؤونه الخاصة . وكان قانعاً

بأنه كناقد ادبي لاتعامل له الا مع طبيعة العمل الموضوعية كما وضع ، والا مع علاقته بالحقيقة . وفكر في انه من الافضل له ترك الامور المتصلة بالسيرة الذاتية، والتي لا تدخل بالمواضيع الأساسية مباشرة ، لعناية علماء فقه اللغة الفائقة .

* * *

واذ شعر بالفتور من كون توماس مان جعل او يستطيع ان يجعل منه يسوعياً لأغراضه الفنية ، لم يتأثر تأثراً مماثلاً بما قد يقوله المؤلف عن حكمه . لقد استخدم طريقته الفلسفية الموضوعية التي لم تحل اهداف الكاتب بل في الواقـــع حلت النتيجة المستقلة غالباً عن الاهـــداف . ولطالما استشهد بعبارة فيلاين Philine غوته : « واذا ما أحببتك ، فما شأنك في ذلك ؟ » على انها وجه نظر الناقد المثالية بالنسبة للفنانين والناس عامة .

الفتور لم يعتريه فقط بسبب الأثر المتوقـــع لآرائه الانتقادية ، بل وخاصة في اواخر سنوات حياته ، بسبب آراء الصحافة فيه وفي مؤلفاته . كان بامكانه اذا ما امتُدح او انتُقد ان يتنسم الرائحة الكريهة للمصلحة الشخصية الضيقة على مسافة ميل ، ولم يحفل الا باولئك الناس الذين استطاع ان يسمع في اصواتهم نغمة التشامخ الاصيلة المتوافقة مع نغمته . هذا ليس معناه انه كان لامبالياً بطريقة استقبال عمله . سره بصفة خاصة اقبال الشباب على شراء كتبه وقراءتها . كان مربياً قلباً وقالباً ، على النمط الاغريقي الكلاسيكي للمربي ، حيث كان يشـــرح تعاليمه لزواره كل صباح تقريباً في معهده الخاص ، أي في شقته الكائنة على جسر بلغراد في بودابست . كان يشعر انه في جوه خصوصاً اذا ما خضع للتحدي . وكان يزداد شعوراً بهذا الجو كلما وضعه خصم في موقف حرج وجهد للخروج مما بدا انه

اشد الظروف مدعاة لليأس . بعدئذ كان يشجع محاوره على تدوين حججه المضادة .

ولم يكن مثل هذا التشجيع بدافع المجاملة . فقد كان لوكاتش من الثقة في الحقائق الاساسية لموقفه بحيث لم يزعجه دحض لهذه القضية او تلك . ولعل بمقدور المرء المضي ايضاً دونما مبالغة الى حد القول انـه كان يرى في التفنيدات الجزئية تبريراً بالتحديد لصوابية فلسفته بأسرها . لقد اعتبر نفسه فيلسوف عصر انتقالي ، وكان سيسعده كل السعادة الترحيب بمحاولة نحو منظومة Synthesis ماركسية جديدة تتخذ منه نقطة انطلاق ثم تتخطاه . لكن التاريخ جحده هذه المتعة كلياً تقريباً .

* * *

ما سبب ما جرى على النحو الذي جرى به ؟ لا يستطيع مفكرو الجناح اليساري الغاء العمل الذي استغرقه حياته . وأفكاره تشعر بوجودها في كل مجال من مجالات الحياة . ولكن الحاجة الى منظومة تضاءلت أيضاً . هل ذلك عائد لربما الى افتقار من خلفوه الى الموهبة ؟ ام هل انعدم الأساس الذي يقيم المرء عليه منظومة ؟ السبب لا يرجع الى أيّ من الاثنين ما دامت ركائز الفلسفة لا توجد خارج هذا العالم (إذا امكن وجودها على اي حال) . ام هل اضحت قضايا العالم من التعقيد المتداخل بحيث صار مستحيلاً في الحاضر على الاقل التوصل الى وجهة نظر موحدة . وكثيراً ما قال لوكاتش خلال كتابته لـ علم الوجود انه احتاج الى خمسين سنة ليدرك ما أدركه ماركس الشاب في ومضة . وبجدية تسخر من الذات استدل لوكاتش من هذا ، على موهبة ماركس الفلسفية الرفيعة المقام . ولكن لعل المرء يصل الى استنتاج مختلف ، فقد يستنتج بأنه قد يكون لظروف

مجتمعي هذين المفكرين، رغم المؤهلات الشخصية لكل منها، دور ايضاً في المنظومة التي تأخرت كل هذا الوقت . لأن المتطلب الأساسي للأخيرة هو ان التصورات الضرورية تاريخياً يجب إظهارها اولاً بقسوة على قدر قيمتها .

* * *

هكذا منذ عشر سنوات سمعته يقول : « إن موهبتي في التحليل النهائي ، قد تكمن في ما لا يتعدى مقدرة معينة على الفصل بين الموضوعي والشخصاني » . ولم أستطع منذ ذلك الحين ان اقرر ما اذا قال ذلك عن تواضع أو تفاخر . وقد تبسّم بخبث منتظراً أثر كلامه .

الانعكاس الضعيف للابتسامة ذاتها أو"مَضَ عليَّ" في غرفة المستشفى . كل حركة صغيرة كانت مجهوداً مضنياً ، جسده الضئيل كان يبدو ضائعاً تقريباً في الفراش ، التحول الجسدي المريع كسا المحيا الغائر بصورة مرعبة ، بقناع قاس برقاني الشكل . وتحدثت اليه ، لكن الوجه ظل جامداً . وسألته بارتباك : « رفيق لوكاتش ، هل ازعجك ؟ » — « لا أنت لا تزعجني ، المشكلة الوحيدة هي أنك تريد اختراق جدار لا مبالاتي لكنك ستفشل في ذلك . » وعدت ثانية للقول : « طبعاً أستطيع التحدث في بعض الأمور المُفرحة ايضاً ... » — « لا ، لا تستطيع ، لأن الامر ذاته لا يبعث على الفرح . » — الامر ذاته — Die sache selbst — لقد وصلنا الى تميز الموضوعي والشخصاني ، أي نقطة الانطلاق الوجودية (الأنطولوجية) . هنا في هذه اللحظة بدأت الابتسامة التي اشرت اليها ، تنفرج بوهن . كانت استباقاً للمناقشة المتوقع ان تتبع . من جهتي كنت مستعداً للمناظرة ، إن اللا مبالاة — هكذا بدأت الجدال — تتصل بحالته ومرضه ، وبكلمة اخرى ، بواقع شعوره لاول مرة في حياته ، بالعجز عن تكوين

رأي في الاحداث العالمية . وتابعت سريعاً اقول ، لكن هذه اللامبالاة مسألة تختص به وحده ، انها نتاج حياته كلها ، جميع ما يرمز اليه اسمه في العالم . فقد ظل اسمه يفرّق المولعين بالتفكير ، استمر في إثارة الحب والكراهية ، وهو يصلح لكل شيء آخر ما عدا خلق جو من اللامبالاة . قال : « كل ذلك ممكن » ، قالها بلسان ثقيل ولكن بارتياح مرده ادراك" لحقيقة ، بينا جعلت البسمة المنفرجة ببطء القناع اليوقاني يتلاشى ، واردف : « كل هـــذا ممكن وانا لا أنكر ان الامر قد يكون كذلك موضوعياً ، لكن هذا لا يبدل حقيقة انني لم اعد اشعر بأي شيء منها ... » . وباصرار ، وعلى نحو غير ضروري ، ذكرته بما كتبه حول كتاب وفاة ايفان ايليتش . بأنها ليست سوى (الحياة ذات المعنى هي التي تقترن بموت ذي معنى . لكنه تمسك بتصلب أشد بالتمييز السالف : « قد يكون كل ذلك صحيحاً ، لكنني لا أشعر بـــه وهو لا يهمني ... » . وحينما كنت اراعيه واصغي اليه ، امتزجت بعض البهجة السوداء ، بالحزن واليأس : يا له من انتصار في ان يحتفظ ، وهو في ذلك الفراش مصاباً بالسرطان والتصلب ، بقدرته التي أشار مرة اليها بافتخار جمّ التواضع .

الدّولة الصّناعية الجديدة

دراسة حول النظام الاقتصادي الأمريكي

تأليف : جون كينيث غالبرايت

عرض وتلخيص : ايلي نجمة

مؤلف هذا الكتاب هو البروفسور غالبرايت ، استاذ في جامعة هارفرد، ورئيس منظمة الاميركيين من اجل العمل الديمقراطي ، وهي احدى اهم المنظمات الاميركية اليسارية .

هذا الكتاب الذي نحن بصدده غني عن التعريف ،فقد صدرت له ترجمات في اكثر لغات العالم ، كما أن وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية تعد ترجمة حديثة له قد تظهر قريباً . وتكمن أهميته انه محاولة جديّة يقوم بها واحد من اشهر الاقتصاديين الاميركيين لتحليل المجتمع الصناعي المتقدم عن طريق القاء اضواء كاشفة عن طبيعة هذا المجتمع ... وعلى مراكز السلطة فيه ، وبنيتها

وتركيبها ... وهو يأمل من وراء ذلك.. استنتاج فلسفة .. جديدة .. للمجتمع الصناعي الجديد ، تتباين كثيراً عن النظريات الاقتصادية التقليدية . فهو يريد ان يبرهن على أن ضرورات التكنيك الحديث واشكال التنظيمات الحديثة للعملية الانتاجية ولوحدات الانتاج الكبيرة ستكون اكثر أهمية وابعـد أثراً من الايديولوجيات في تحديد شكل المجتمع الاقتصادي . واول مايريد ان يؤكد عليه من خلال العرض الطويل في هذا الكتاب هو التركيز على حتمية التقاءاقتصاديات البلدان الصناعية المتقدمة ... إذ يقول ان الانظمة الاقتصادية في كلا البلدين : الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة تفضي ، وإن اختلفت الوسائل ، الى نتائج متماثلة : « زيادة في الانتاج ، تقدم في التكنولوجيا ، تنظيم الطلب الاجمـالي .. والتخطيط» .

ولئن كانت الدولة في الاتحاد السوفيتي هي التي تقوم بعملية التخطيط ، وان هذا التخطيط يتم في الولايات المتحدة على يد ٥٠٠ او ٦٠٠ مؤسسة وشركة كبيرة ذات صلات وثيقة بالدولة .

يقسم المؤلف الاقتصاد الاميركي الى قطاعين كبيرين : القطـاع الاول يتألف من آلاف المشاريع والمؤسسات التقليدية الصغيرة ، أما القطـاع الثاني فهو يتكون من ٥٠٠ او ٦٠٠ شركة كبيرة ، ويطلق على هذا القطاع اسم النظام الصناعي ، وهذا الأخير هو السمة الرئيسية التي تميز الدولة الصناعية الجديدة .

فالمشاريع الجديدة ذات المستوى التقني المتطور تحتاج الى رؤوس أموال ضخمة ، كما أن العملية الانتاجية بالذات اصبحت تتطلب زمناً أكبر منذ البدء بها حتى الانتهاء منها ، كما أن ذلك أصبح يحتاج الى ابحاث مكلفة جداً ، لذا

اصبحت المشاريع الآن ، بحكم هذه الشروط الانتاجية ، مضطرة للتدخل بالسوق لتخطيط حركته ومراقبة سيره ، وبالتالي لتقيد سيره الطبيعي سواء عن طريق التكامل العامودي، أو تؤثر فيه بفضل حجمها المتزايد ، أو بشكل حركة السوق الطبيعية وجعل تأثيره هامشياً عن طريق عقد الاتفاقات التي تحدد الاسعار وكميات الانتاج لفترة محددة .

بذلك أصبحت المؤسسات الحديثة تخطط لنشاطاتها الاقتصادية ، على نحو ماتقوم به الدولة في البلاد الشيوعية والاشتراكية من تخطيط الاقتصاد كمله.

كما يلاحظ ان المؤسسات الكبيرة الحديثة اصبحت أقل ارتباطاً بالسوق المالية لتأمين رؤوس الأموال اللازمة لتطورها ونموها ، إذ غدت تعتمد بالدرجة الاولى على أموالها الاحتياطية لتمويل استثماراتها .. ففي الولايات المتحدة قدر ادخار المشروعات عام ١٩٦٥ بـ ٧٧٪ من مجموع الادخار العام . واصبح الأمر الهام بالنسبة للنظام الصناعي البحث عن آلية محددة تؤمن له توظيف هذه الادخارات ، على أن يقتصر الاستثمار على الأموال المدخرة والجاهزة (١) . ومن أجل تأمين هذا المطلب فإن الدولة وحدها هي القادرة ، عن طريق سياستها المالية والضريبية وميزانيتها ، على التحرك جدياً لتحقيق هذا التوازن . وتدخل الدولة هذا يغدو ضرورة متممة للتخطيط الصناعي الجديد .

مما تقدم ، نستطيع ان ندرك الأسباب التي تدعو الى تركيز السلطة داخل المؤسسة الحديثة بيد العنصر البشري القائم على ادارتها . ففي الماضي ، ادى التقدم التقني واكتشاف الأراضي الجديدة الى نقل السلطة من أيدي مالكي

---

(١) تفاديا لظهور آثار تضخمية

الارض الى ايدي اصحاب رأس المال . بيد ان هذا الوضع قد تطور الآن ،إذ ان المؤسسات الكبيرة الحديثة لم تعد تجد صعوبة في الحصول على رؤوس الأموال ، التي تتراكم في خزائنها واحتياطيها ... فضلاً عن امكانية الحصول عليها عن طريق الائتمان . الا ان مايصعب الحصول عليه أو استبداله ، هو العنصر البشري الكفء والقادر على ادارة المؤسسات . اذ يفترض فيه في الغالب تمتعه بكفاءات ومؤهلات تنظيمية متفوقة . هذا الوضع أدى رويداً رويداً الى انتقال السلطة الفعلية في داخل المؤسسة الى هـذا العنصر « التكنوستروكتور » Technostructure ، أي الجهاز الذي يصدر القرارات .

إن عهد المستحدث الذي يملك مؤسسته او معمله . . أو أكثرية الاسهم فيه ، والذي عرفه القرن التاسع عشر ، قد ولى الى الابد . إذ ان تضخم المشاريع وتكاملها وتشابك المهمة التنظيمية والتخطيط لم تعد تسمح بتولي الادارة من قبل شخص واحد ، وبالتالي اصبحت السلطة تنتقل من يد هذا الشخص « المستحدث » ، صاحب المشروع ، الى جهاز مختص وهذا الانتقال يتم عملياً بشكل تدريجي نظراً لضرورته ودون اية اصطدامات. ان مستحدث « القرن التاسع عشر » قد قضى عملياً على نفسه بنفسه ، فهو كلما قام بتوسيع مشروعه وتضخيم نشاطاته كلما اصبح يصعب عليه ادارته ، لأن الإدارة الحديثة وتشابك المهمات والتخطيط تفوق امكانية الشخص الواحد ، وهذا الواقع ادى الى زوال الإدارة الشخصية لصالح الجهاز المختص بذلك .

وبعبارة اخرى فإن المؤلف يريد ان يقول إن التكنولوجيا المتقدمة والتخطيط يفرضان انتقال السلطة واتخاذ القرارات الى الجهاز الذي يقوم بالإدارة.

الفعالية المباشرة أيا كانت طبيعة النظام السياسي السائد في البلد ، وسواء أكانت ملكية المؤسسة عامة ام خاصة . ففي كل الحالين يأخذ هـذا الجهاز على عاتقه مسؤوليات متشابهة ويلجأ الى اساليب جماعية في اتخاذ القرارات (ص ١١١) . وهنا لابد من الاشارة الى ان الاستقلالية « Autonomie » التي تعطى لإدارة المشاريع في الاتحاد السوفيتي لا تعني – كما يعتقـد غالباً – العودة الى اقتصاد السوق ، بل تعني نقل عملية التخطيط من يد الدولة الى يد المؤسسة . وفي الوقت نفسه يختفي في الولايات المتحدة اقتصـاد السوق رويداً رويداً ويحل محله اقتصاد تخطط له المؤسسات الكبرى .

إن التنظيم يفرض التنسيق ، وهذا يتطلب إقناع عدد من الافراد بالتخلي عن أهدافهم الشخصية لصالح أهداف المؤسسة ، بحيث يتعاونون جميعاً ويعملون من أجل الاهداف المشتركة . والحافز هو الوسيلة التي يتم التنسيق عبرها . فالقسر والمكافآت المالية ، وحب التميز والظهور وعوامل أخرى ، كلها حوافز يمكن استخدامها .

فعندما كانت السلطة الاقتصادية ترتبط بملكية الارض ، كان الاكراه هو الوسيلة التي تمارس لزيادة الانتاج ، وعندما أصبحت السلطة الاقتصادية مرتبطة برأس المال ، تغلب حافز الربح على بقية الحوافز . أما في المؤسسة الجديدة فدافع الظهور يكاد يتغلب على بقية الحوافز ؛ اذ يفقد الحافز المادي بالضرورة من أهميته عندما يتجاوز الدخل مستوى معيناً ولا يعود مرتبطاً برأس المال .

والمؤلف هنا يقدم المؤسسة الجديدة على أنها سلسلة من الدوائر المركزية . وكلما اقتربنا من الجهاز الذي يتخذ القرارات يصبح الدافع المشار اليه على الاغلب دافعاً مقبولاً اكثر فأكثر ، بينما نرى في المؤسسة التي يدير اعمالها رجل واحد

ان الرغبة في الربح المادي لها اهمية كبرى . وحالياً ، فإن للمؤسسة الحديثة ، من الشهرة والمكانة ما يساعدها على جعل أهدافها اهدافاً شخصية للعاملين بها ، اذ تساعد الفرد الذي يعمل بها على قبول أهدافها بدلاً من السير وراء أهدافه الخاصة .

ولكن ما هي أهداف المؤسسة الجديدة هذه ؟ هناك هدفان اساسيان رئيسيان : تحقيق حد معين من الأرباح ، وتأمين نمو مستمر للمؤسسة كما ان على الجهاز الذي يقوم بالادارة ان يحافظ على استقلاله كاملا ليستطيع ان يبقي بين يديه سلطة اتخاذ القرارات .

فالهدف الأول اذن هو تحقيق ارباح معقولة تتيح زيادة عائدات المساهمين ، لابعاد المساهمين عن التدخل كثيراً في اتخاذ القرارات من جهة ، تأمين تمويل الاستثمارات من جهة اخرى ، وهكذا تصبح أقل ارتباطاً بالدائنين والمقترضين . ومتى تحققت نسبة الارباح التي تغطي هذين الهدفين لايعود للجهاز القائم على الادارة مصلحة في زيادة الارباح عن هذا الحد ، لأن أية زيادة لاتفيد سوى الآخرين .

اما الهدف الثاني، فهو الحصول على اكبر معدّل ممكن للنمو . والمؤسسة الحديثة تلتقي بذلك مع الهدف الجماعي الاساسي وهو زيادة الناتج القومي الاجمالي. ونظراً لأن التطور التكنيكي يقر بحد ذاته تقدماً ، فإن المؤسسة تسعى لتحقيق هدف ثالث هو رفع مستوى طاقتها في التجديد والاختراع . ولئلا تؤدي تكاليف الابحاث ومخاطرها الى القضاء على الحد الادنى الضروري من الارباح فإن المؤسسات الكبرى تحاول وتسعى لوضع تكاليف ومخاطر هذه الابحاث على عاتق الدولة .

إن حسن سير العمل في النظام الصناعي يتطلب اذن التخطيط الدقيق، وهذا الأخير يتطلب بالضرورة مراقبة الاسعار. ولذلك تسعى المؤسسة الكبيرة للحصول على اسعار ثابتة ، كما تسعى للحيلولة دون انخفاض الاسعار الذي قد يؤدي الى انخفاض الارباح ، لهذا تتجنب المؤسسات الكبيرة دائماً استخدام الاسعار كسلاح في عمليات المنافسة ، وتلجأ الى اقتسام السوق وبهذا الصدد يقول المؤلف : « إن المؤسسة الكبيرة سيطرت على السوق لا من أجل تحقيق غايات احتكارية بل لبلوغ اهداف تخطيطية ».

أما التخطيط ، فهو يتطلب كما قلنا السيطرة على الاسعار ، وأيضاً على كميات الانتاج من بضائع وغيرها . وهنا تبدى علاقة ارتباط الطلب بالاعلان . ويخالف البروفسور غالبرايت بهذا الشأن النظرية الكلاسيكية التي تؤكد على سيادة المستهلك وتدّعي عدم جدوى الاعلان الذي تصبح فعاليته شبه هامشية بسبب تضارب المصالح الاعلانية ، بحيث يؤدي الاعلان بالنتيجة الى ارتفاع الاسعار وحسب .

أما البروفسور غالبرايت فيقول ، على عكس ذلك : إن فعالية الاعلان تكمن في تجريد المشتري من قدرته على اتخاذ قرار ونقل هذه الامكانية الى المشروع او المؤسسة التي تستطيع ان توجه المشتري . وتذهب النظرية الكلاسيكية الى إن المستهلك ، عن طريق تحريك طلبه في السوق، يؤثر على الكميات المنتجة والاسعار، بينما نرى في النظام الصناعي أن المشروع الكبير يسيطر على الاسعار ويحدد طلب المستهلكين ، ليضمن استقرار تخطيطه ونجاحه .

إن المؤسسة الكبيرة تراقب الاسعار والطلب الاجمالي ، ولكن لا بد لها ايضاً من أن تنظم الطلب والقوة الشرائية ، ولا بد لها بالتالي من تملك الوسائل

لعلاج حالات نقص الطلب او زيادته . وفي الواقع ، فإن الدولة وحدها هي التي تملك الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الهدف عن طريق زيادة الضرائب عندما يرتفع الدخل ، فتخفض بذلك الطلب الاجمالي ، كما تخفض الضرائب من اجل زيادة الطلب الاجمالي . وحتى يكون تدخل الدولة مجدياً لا بد من وجود قطاع عام كبير ومهم للتأثير في حجم النفقات العامة . وحالياً . . في الولايات المتحدة فإن القطاع الذي يستقطب النفقات العامة هو قطاع النفقات العسكرية ، وحجم هذه النفقات هو الذي يكفل التقدم التكنيكي ويتيح للمشاريع أن تخطط بدون اي خطر .

إن النظام الصناعي ذا الطبيعة التكنولوجية المتقدمة يتطلب مختصين ذوي كفاءة عالية . ان الحاجة لأصحاب الياقات الزرقاء تتناقص نسبياً ، في حين ان الطلب على اصحاب الكفاءات الفكرية « اصحاب الياقات البيضاء » يتزايد . وبهذا تنحصر جماهير العاطلين عن العمل في الاشخاص الاميين غير القادرين على املاء شواغر العمل المتوفرة والمعروضة . لهذا فإن البطالة في الوقت الحاضر ليست نتيجة لانعدام الطلب العام وحسب ، بل لها ايضاً اسباب ثقافية . ونظام التعليم الحالي قاصر عن حل المشكلة . وهنا ايضاً فإن الدولة ، وحدها هي المطالبة بتصحيح الوضع ، بأن تقدم للنظام الصناعي اليد العاملة الكفوءة والضرورية .

ان مراقبة الاسعار التي يمارسها النظام الصناعي مجدية في الواقع للحيلولة دون انخفاض الاسعار اكثر بكثير مما هي مجدية للحيلولة دون ارتفاعها ، لأن المؤسسة الكبيرة الحديثة التي لا تلجأ لزيادة ارباحها كثيراً تستطيع أن ترفع الأجور « وايضاً الاسعار » دون ان يتعارض ذلك مع هدفها الاساسي . هنا أيضاً يترتب على الدولة ان تتدخل لتراقب الاسعار والأجور .

في الماضي ، حين كانت المشاريع مشاريع عائلية تدار من صاحبها ، كان مبرر وجود النقابات ، هو الصراع القائم بين العمال وارباب العمل حول الاجور. اما في النظام الصناعي ،حيث تعود السلطة لجهاز الادارة(١) ، وحيث الهدف هو تأمين سلامة المؤسسة اكثر من رفع الارباح ، هذا الجهاز يقبل عادة بسهولة رفع الاجور. كما ان ارتفاع عدد اصحاب الياقات البيضاء وهؤلاء لا يحبون في الغالب المنظمات والتنظيم ، يفسر الى حد ما انحسار النقابات في الولايات المتحدة . ان النظام الصناعي تجاوز الآن الحركة العمالية ووضع حداً لعدد كبير من أغراضها الأساسية. اما فيما يتعلق بالنشاطات التي ماتزال النقابات تختص بهـا ، فقد اخضعها النظام لأهدافه الخاصة . (ص ٢٨٧) .

إن تراجع النقابات يترافق مع ظهور جماعات اخرى كجماعات المربين والاختصاصين والباحثين العلميين . ان أعداد هؤلاء المربيين والباحثين تزداد بسرعة واصبحوا يلعبون دوراً اجتماعاً جديداً ، وعلى هؤلاء يعتمد الجهاز القائم على الادارة ، التكنوستروكتور « technostr ucture » لتأمين حاجتـه من المختصين .

لقد ارشدنا – في مناسبات عديدة – الى تدخل الدولة المتزايد في نشاطات الاقتصاد الأميركي الذي يسيطر عليه النظام الصناعي . وخلاصة القول : الدولة تنظم الطلب الاجمالي، وتراقب الاسعار والاجور، وتهيء نظاماً تربوياً، وتجعل من نفسها السوق الذي يشجع التقدم التكنولوجي الأكـثر تقدماً : « الابحاث العسكرية والفضائية » .

---

(١) التكنوستروكتور Technostrcture

في الثلاثينات ، كان يُخشى من ان تسيطر الدولة على المؤسسات « أو المشروع ». وحالياً يخشى في الواقع من ان تسيطر المؤسسات الكبرى على الدولة. بيد ان البروفسور غالبرايت لايرى ذلك لأسباب ، اولها ان اجهزة الادارة في هذه المؤسسات لا تملك تحت تصرفها اموالا للعمل السياسي المباشر ، كما ان الجماعية في ادارة المؤسسات تجعل الأمر اكثر صعوبة ، ويضاف الى ذلك عامل مهم جداً هو ان تدخل الدولة الذي يضايق المؤسسة العائلية ورب العمل لم يعد له نفس الأثر على المؤسسة الحديثة . بل على العكس اذ استطاعت المؤسسة الحديثة ان تخضع الدولة لحاجاتها. فجهاز الادارة في المؤسسة والدولة أصبح لهما نفس الهدف، وهو تأمين النمو مع ضمان الاستقرار . وبالتالي لم يعد ثمة حدود فاصلة بين مصالح الدولة ومصالح المؤسسة الخاصة .

وبعد ان يعرض لنا البروفسور غالبرايت النظام الصناعي كما يراه ، ينتقل للبحث في نتائج هذا النظام والوسائل التي تساعد على تحسينه من اجل تحرير الانسان ، لأنه يعتقد انه اذا انسجم النظام الصناعي مع حاجات الانسان ... فإن الانسان من جهة اخرى سينسجم اكثر فاكثر مع اهداف هذا النظام ومتطلباته .

اما التبعية فتبقى غير قسرية طالما انها تفرض اعمالا غير ذات اهمية . ان النظام الصناعي ، كما رأينا ، بحاجة الى قطاع عام كبير - بصورة خاصة الميزانية العسكرية - وانه لابد له من وضع عالمي يبرر له النفقات العسكرية. ومنذ عشرين عاماً ، كان هذا الوضع العالمي : الحرب الباردة ، وهنا يكمن الخطر .

والآن ، في الولايات المتحدة كما في الاتحاد السوفييتي ، يوجه الاقتصاد بغية احراز التفوق التكنولوجي العالمي . لذا يجب على المربين والباحثين العلميين ان يتحركوا للعمل على وضع حد للتنافس والسباق في مجال التقدم التكنيكي الذي

لا يخدم سوى التدمير ، واستبدال التنافس العلمي التكنولوجي السامي به .. كأبحاث الفضاء وابحاث تنقية المياه والاجواء وغيرها .

وعلى عاتق هيئة المربين والعلميين يقع ايضاً واجب التحرك في مجالات اخرى عديدة ، لأن النظام الصناعي لا يعنى بعمليات وخدمات الدولة التي ليست لها علاقة مباشرة مع متطلباته الخاصة . فالدولة وحدها هي القادرة على الدفاع عن « الاولوية الجمالية » في البناء وغيره . والجمال جدير بأن يضحى من اجله بقسم من الناتج القومي. صحيح ان الحكومات الديمقراطية غالباً ما تفضل الاشياء القبيحة، إنما على هيئة المربين والعلميين تغيير هذا الواقع .

إن السوق يعمل جيداً من خلال جو اكثر اتساعاً ، وخارج عن النظام الصناعي . لذا هناك عدد من النشاطات لا بدّ من تخطيطها كالمواصلات داخل المدن ، والسكن ، وغيره .

إن النظام الصناعي الجديد سيزيد من الوقت المخصص للراحة على حساب الوقت المخصص للعمل . ونلاحظ منذ ٢٥ عاماً وحتى الآن ، ان المعدل الوسطي لساعات العمل الاسبوعية قد ازداد ، كما ان الدخل قد تضاعف تقريباً . والواقع ان الناس اصبحوا يتعلمون اكثر فأكثر لأن البيئة وتكييف الطلب بشكل معين يخلق اكثر فأكثر حاجات جديدة لا بدّ من الحصول عليها . ويرى المؤلف هنا انه يجب ان يعطى الفرد الذي يريد ان « يعيش » وبشكل متواضع دون أن يعمل اكثر من ١٠ الى ٢٠ ساعة في الاسبوع ، امكانية تحقيق ذلك (ص٣٧١) .

إن النظام الصناعي الجديد لا يدخر وسعاً من أجل تعميق المعتقدات التي تبرر تخطيطه وأهدافه . وكثير من الناس يرون في ذلك مظهراً من مظاهر الدكتاتورية الجماعية ، إنما يكمن العلاج في مساعدة الفرد على التحرر من خضوعه .

فيجب أولاً تنمية روح النقد عند الفرد حتى يضع دائماً امام التساؤل والمعتقدات التي يريد (ص ٣٧٥) النظام الصناعي فرضها . وهذا في الحقيقة هو دور التربية . وفي هذا يقول المؤلف ان النظام الصناعي ، عن طريق ربط مصيره بالتكنولوجيا والتنظيم ، اخضع نفسه للأشخاص اللازمين لادارته (ص ٣٨١) ، وبالتالي فإن على المربـين والعاملين ان يتحملوا مسؤولياتهم ، وان لا يدعوا انفسهم يقعون تحت سيطرة النظام الصناعي . وللوصول الى ذلك يتمنى المؤلف اصلاحاً لنظام التعليم الاميركي وان يكون هناك إذاعات ومحطـات للتلفزيون متحررة ، لا تنحصر اغراضها في خدمة مصالح النظام الصناعي .

ان مبادرة سياسية واحدة تستطيع تغيير الصورة ، والوضع الذي تعتمد عليه حالياً السياسة العسكرية والسياسة الخارجية (ص ٣٨٥) ، هذه المبادرة... يجب ان تأتي من هيئة المدرسين والعلميين ، بالرغم من ان هـذه الهيئات مشاولة في العادة لاعتقاد معظم افرادهـا ان ليس لهم سوى دور سلبي . ولكن تزايد أعدادهم يتيح الامل بأن ينتقلوا الى مرحلة العمل الايجابي .

ومن أجل المستقبل ، يمكننا ان نعتقد انه مجرد الاعتراف بتلاقي الانظمة الصناعية يقودنا للاعتقاد ان التسابق في التسلح خطر جـداً . ومن الضرورة وضع حدّ لذلك نقل التسابق والمنافسة الى ميادين اخرى . وفي القريب سيشكل النظام الصناعي مع الدولة مجمعاً كبيراً سوف يصبح أساساً بناءً تكنيكياً معداً من اجل ان يؤمن لنا الاموال والحاجات والخدمات التى نرغب فيها بكميات متناسبة مع حاجاتنا .. وأذواقنا ايضاً .

سوسيولوجيا ماركس وفلسفته الاجتماعية (*)

ت. بوتومور وم ربيل

ترجمة : محمد حافظ يعقوب

ثمة فكرة شائعة حتى الآن قوامها أن ماركس ظل طيلة حياته تلميذاً لهيجل ، وأن كل الذي قام به هو تطبيق ، بشكل كبير أو صغير ، فلسفة أستاذه الضخمة في التاريخ . لقد نشأ ماركس ، طبعاً ، في متنفس الفلسفة الهيجلية ، واستخدم تقنيتها اللغوية ، وخاصة في كتاباته الأولى . وهو لم يلفظ احترامه البتة لعدد من مظاهر « المنهب » System . بيد أن لنظريته الاجتماعية الخاصة اصولها العقليه الاخرى بالاضافة الى هيجل ، كما انها اعتمدت ، كما يجب أن نتذكر ، على دراسة تجريبية (امبريقية) لحياة الطبقة العاملة وحركاتها .

(*) البحث فصل من كتاب « كتابات مختارة في السوسيولوجيا والفلسفة الاجتماعية » وضع ت. بوتومور و م . ريبل ، طبعة بيلكان ١٩٦٧ :

Selected Writings in Ssociology and Social Philosophy .
T. B. Bottomore , Maximi lian Rubel

في بداية عام ١٨٥٨ ، عندما فكر في عمله العلمي بعد انقطاع طويل ، كتب ماركس لانجلز قائلا: إن الصدفة وحدها هي التي لفتت انتباهه الى كتاب المنطق لهيجل ، وان قراءة هذا الكتاب مفيدة للغاية ، وبالأخص لاختيار المنهج الذي سيعرض فيه عمله . ثم اضاف : « إذا تسنى لي الوقت ، فسأكون مسروراً للغاية إذا ما تمكنت من جعل الفهم الانساني العادي يدرك (في كتاب صغير) الطابع العقلي المنهج الذي اكتشفه هيجل ، والذي كان غيبياً في نفس الوقت »(١) .

ولم يجد ماركس هذا الوقت ابداً ، طوال السنوات الخمس والعشرين التالية من حياته ، كي يحقق ذلك . فلقد شغل نفسه في « مغازلة» الاسلوب Style الهيجلي خلال عرضه لنظرية القيمة في رأس المال (٢) . وفي كتاباته الاولى،انتقد ماركس ورفض نظرية هيغل السياسية كما قدمها في أسس فلسفة الحق Crund - Linien der Philosophie des Rechts

ولقد حلل بعناية مفاهيم هيغل السياسة ، وقام بتحديد ملامح نظرية سوسيولوجية في الدولة . ولقد عبر عن تعارضه مع هيجل ، وقتذاك ، في امتداح متحمس للديمقراطية ، وليس للاشتراكية، لانه لم يكن قد أصبح بعد على اتصال بالحركة الاشتراكية (٣) . وكتب عام ١٨٤٤ نقداً طويلا لمنهج هيجل . وامتدح مفهوم هيغل،المعروض في كتابه Phenomenologie desGeistes «فينومنولوجيا الروح » ، في أصل وتطور الانسان . لقد أدرك هيغل ، في رأي ماركس ، ان

---

(١) من ماركس الى انجلز . ١٤ كانون الثاني ١٨٥٨ .

(٢) انظر مقدمة الطبعة الألمانية الثانية (١٨٧٣) .

(٣) من المحتمل ان ذلك كتب بين آذار وآب من عام ١٨٤٣ ولم ينشر حتى عام ١٩٢٧ .

الانسان خلق نفسه ، خلال عملية تاريخية ، القوة المحركة فيها هو العمل الانساني ، أو النشاط العملي للناس الاحياء في مجتمع . « ان الامر الاساسي في فينومنولوجيا هيجل هو اعتبار هيجل ان الخلق الذاتي للانسان عملية .. وانه بذلك فهم طبيعة العمل وادرك الانسان الواقعي .. كنتيجة لعمل الانسان نفسه » (١) ولكن هيجل ، حسب رأي ماركس ، — وهذا هو الفارق الجوهري بين المفكرين — توصل الى العمل من خلال شكله المستلب alienated ، كفعالية للروح المطلقة Pure Spirit . إذ انه يرى ان العملية التاريخية هي حركة وصراع مقولات مجردة يشكل فيها الافراد الحقيقيون أشياء لاحول لها ، ويؤدي الاستلاب السياسي والاقتصادي، اللذان فهمها هيجل ووصفها جيداً ، الى التفكير المحض. والفيلسوف ينصب نفسه ، مراقباً ، وقاضياً ، ومخلصاً للعالم المستلب

« ان الفينومنولوجيا نقد خفي ، غامض ، وغيبي ، ولكنها بالدرجة الأولى ادركت استلاب الانسان .. وكل عناصر النقد متضمنة فيها ، وهي قدمت غالباً وعرضت بطريقة تتجاوز فيها وجهة نظر هيجل الخاصة »(٢) .

وهكذا ، بينما ينتقد ماركس فلسفة هيجل في التاريخ ، يوافق على مفهوم عملية الخلق الذاتي للانسان . وهذا لايستتبع القول إن ماركس نفسه كان فيلسوف تاريخ ، أو ان مفاهيمه في التطور التاريخي مأخوذة عن هيجل . ففكرة التطور التاريخي للمؤسسات الاجتماعية موجودة في كثير

---

(١) المخطوطات الاقتصادية والفلسفية .

(٢) المخطوطات الاقتصادية والفلسفية (الاول) .

من الكتابات السياسية والتاريخيــــة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١) ممتزجة بالتشكيلات الأولى لفكرة التقدم ، التي قد ينظر اليها على أنهـــا بداية انفصال سوسيولوجيا التاريخ عن فلسفة التاريخ . وكما ارتؤي كذلك ، ان هيجل أعطى فكرة التقدم هذه أهميـة خاصة من خلال تأكيده على صراع الأضداد ــ كمثال ، الحركة الجدلية ــ التي أخذت في نظرية ماركس الاجتماعية سمات مشابهة في صراع الطبقات ، محتلة بذلك مكاناً بارزاً ، بله أساسي . وهذا يتضمن ، أن ماركس ، سواء كان فيلسوف تاريخ أم لا ، مدين كلياً ودون أدنى شك لهيجل في واحدة من نظرياته الجوهرية ، التي طرحت كنظرية فلسفية أكثر منها إنجازاً سوسيولوجياً . بيد أن هذا القول يبدو هزيلا للغاية حتى نستطيع أن نقول ان هذه مكونات نظرية ماركس عن صراع الطبقات ، وخاصة أن ماركس نفسه أعطانا تقريراً مغايراً ، حين كتب يقول في رسالة له شهيرة جداً :

« ليس لي أي رصيد شخصي في اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع الحديث ، وليس الصراع بينها فحسب ، فلقد وصف

---

(١) انظر على الأخص المؤرخين الاسكتلنديين : آدم فيرغون « دراسة في تاريخ المجتمع المدني » عام ١٧٦٧ (التي ترجم الى الالمانية ، ومن المحتمل أنه أثر بهيجل في مناقشته للمجتمع البورجوازي) . وكذلك جون ميلر « اصل تمايز الصفوف » سنة ١٧٧١ . وفي فرنسا ، اينغويه « نظريات القوانين المدنية » سنة ١٧٦٧ . وكتابات سان سيمون (ناقشها فيا بعد) . وكان ماركس على معرفة وثيقة بأعمـال المؤرخين السكوتلانديين وسان سيمون والمؤرخين المتأثرين به ، ووضعهم في منزلة أعلى بكثير من هيجل ومساهماته في المجال التاريخي .

المؤرخون البورجوازيون قبلي بكثير التطور التاريخي لصراع الطبقات هذا ، وكذلك قام الاقتصاديون البورجوازيون بالتشريح الاقتصادي للطبقات » (١)

بينما يعود تأثير هيجل الى اكثر من تحريض ماركس على الانتقاد العام والرفض الكامل لعلم التاريخ historiography كما كان آنذاك .

وثمة جانب آخر أثر بشكل كبير في تفكير ماركس قامت به فكرة الاستلاب Alienation الهيجلية . وهذه الفكرة « المفهوم » أساسية في الدراسة الهيجلية للعقل Mind ، لدى كل من فلسفة هيجل الخاصة (في الفينومينولوجيا) ، وفي شكل لاحق اكثر راديكالية في كتابات « الهيجليين الشبان » young Hegelians . ويعني هذا الاستلاب طرفاً تظهر فيه قوى الانسان على شكل قوى أو جواهر ذاتية الوجود تحدد سلوكه . وبهذا المعنى استخدم فويرباخ فكرته في الاستلاب عند دراسته للمسيحية (٢) : حاول ان يبرهن ان جوهر الدين هو جوهر الانسان نفسه مكوناً خارج نفسه ومباوراً ومشخصاً . ان القوى والقدرات المعزوة الى الآلهة هي في الحقيقة قوى الانسان نفسه وطاقاته ، والقانون الالهي لايعني شيئاً عدا قانون طبيعة الانسان نفسه .

ولقد انطلق ماركس ، كما كتب في «اطروحات حـــول فوير باخ » ThesesonFeurbach ، من الوضع الذي انتهى اليه فويرباخ . ومشكلة الاستلاب

---

(١) من ماركس الى فايدماير ، في ٥ آذار سنة ١٥٨٢ . ومن السهل للغاية اكتشاف أصول نظرية ماركس دون الإلتجاء الى هيجل . كل ماكان على ماركس هو أن يقرأ مؤلفات المؤرخين المعاصرين (خارج ألمانيا) وأن يراقب ماكان يحدث أمام عينيه ، وقد فعل كلا الأمرين معاً .

(٢) فويرباخ ، Das Wesen des christent umso ١٨٤١ وترجمته بالعربية: جوهر المسيحية .

تسيطر على كل كتاباته ، ولكن من خلال رؤيا فيلسوف (كنزاع مع جوهر الانسان ، مثلا) لا اكثر . فاختبر الاستلاب كظاهرة سوسيولوجية . تساءل ماركس : في اي الظروف يكوّن الناس قواهم الخاصة ، قيمهم الخاصة ، حول الكائنات الراقية ، والمفترضة . ماهي الاسباب الاجتماعية لهذه الظاهرة ؟

من هنا ، افترق بعيداً عن فويرباخ ، ودرس أشكالاً أخرى للاستلاب . وفي مقابل تأليه هيجل للدولة ، اعتبر الدولة (كقوة خارجية ، تعسفية ، تسيطر على المجتمع) على أنها مجرد شكل آخر للاستلاب الانساني . وفي تحليله للبنية الاقتصادية للرأسمالية ، وصف الثروة على شكل الرأسمال على انها حالة أخرى من الاستلاب ، فسيطرة رأس المال هي « السيطرة على الناس الأحياء من قبل امور ميتة » (١) . وهنا ، كما في حالة الاستلاب الديني ، سأل ماركس السؤال التالي : ماهي الأسباب الاجتماعية لهذه الظاهرة ؟ كيف حدث ان الكائنات الانسانية شرعت ، لاغراض خارجية ، تقوم بعملية تجريد لهذه القوى التي هي في الحقيقة قواها هي ؟ فهم ، مثلا ، يعتبرون الدولة قوة تنظم المجتمع ، بينما بنية المجتمع هي التي انشأت الدولة في الحقيقة ، او انهم يعتبرون ان الثروة تتجلى في رأس المال ، التي هي من خلق العمل الاجتماعي (عمل الناس المترابطين) كقوة مستقلة ، وفعالة ، تقوم بـ « تشغيل » الكائنات الانسانية ؟ (٢)

---

(١) انظر الجزء الثالث ، القسم الرابع . ص ١٧٥ - ١٨٥ .

(٢) مفاهيم ماركس عن « الوعي الزائف » و « الايديولوجيا » مترابطة بمفهوم «الاستلاب » فالوعي الزائف هو وعي الافراد ضمن شرط الاستلاب ، والايديولوجيا هي نظام المعتقدات التي انتجها هذا الوعي الزائف . ولقد استخدم ماركس لفظة « الايديولوجيا » فيما بعد ، بالطبع ، في معاني مختلفة . فهي في أحد هذه المعاني مثلاً ، نظام افكار مضلل متعمد . ولمعرفة الآراء الحديثة عن تصور ماركس للاستلاب ، أنظر ، جان هيبوليت « دراسات حول ماركس وهيجل » باريس ١٩٥٥ الذي نشرته وزارة الثقافة بدمشق تحت عنوان «دراسات فيماركس وهيجل »، ترجمةالاستاذ جورج صدقني .

ولقـــد أدى مفهوم هيجـل للعمل كـ « عمل روحي » ، وللاستلاب كظاهرة روحية محضة، الى القول ان العملية الجدلية « تتسامي » Sublimation التي نتج من جرائها الاستلاب، قد حدثت فقط في مستوى التفكير المجردوتركت المؤسسات الاجتماعية الموجودة ثابتة . وطبقاً لهيجل ، فان الحق المجرد متسام في الاخلاقي ، والاخلاقي متسام في الأسرة ، والأسرة متسامية في المجتمع المدني ، والمجتمع المدني متسام في الدولة ، والدولة متسامية اخيراً في التاريخ العالمي . بيد أن كل هذه العملية الجدلية ، التي عرضها هيجل في « فلسفة الحق Philosophie des Rechts » ، لم تمس المؤسسات الاجتماعية الحقيقية ، الاسرة ، والمجتمع المدني، والدولة . لكن ماركس ، في مقابل هذه التخيلات ،يعيد إنشاء فكرة التحول الحقيقي للمجتمع ، التي يبدو مظهرها الاخلاقي في استعادة الانسان لصفاته الطبيعية، باعتباره إياه كائناً اجتماعياً متحرراً من الاستلابات التي تستعبده .

ولم توجه نظرية هيجل أي اهتمام للظاهرة الاجتماعية الحقيقية ، بل ان الفيلسوف لم يول عناية بشرح أصولها ، ولا تطورها ، ولا اختفائها .. ولقد بدا هيجل ، بالضرورة ، لماركس أنه عملاق حين تمكن بالاستفادة من مقولة سحرية هي مقولة « سلب السلب Negatian oftne Negatien » من النجاح في إثارة او اخماد ، خلق او اتلاف ، حفظ أو الغاء ، الخلق الاجتماعي للانسان . « ان كل (منطق) هيجل هو اثبات ان التفكير المجرد ليس شيئاً بحد ذاته، انالفكرة المطلقة ليست شيئاً بحد ذاتها ، وان الطبيعة وحدها هي « شيء ما »(١) . لقد فصل هيجل فعل التفكير عن المادة الانسانية ، وحول هذه المادة الى نتيجة للفكر

---

(١) المخطوطات الاقتصادية والفلسفية (١٨٤٤)

الساكن . ويعلق ماركس قائلاً ، إنه من الواضح « إذا لم يوجد الانسان ، فان دلائل حياته لا يمكن ان تكون إنسانية ، كما أن التفكير لا يمكن ان يكون اعلاناً عن حياة الانسان ، ككائن انساني ، ومادة طبيعية ، ذي عينين وأذنين .. الخ ، ويعيش في مجتمع ، في العالم وفي الطبيعة »(١) .

وهذه هي باختصار المرحلة التي كان ماركس قد توصل اليها في تحليلاته ، حين كان يعمل على أن ينتقد كلاً من القانون ، والاخلاق ، والسياسة ، الخ ، في كتب مستقلة متنوعة ثم انتقاد تداخلها جميعها ، في كتاب خاص ، أي انتقاد العلاقة بين الأجزاء المختلفة ونقد العلاج المقبول لهذه المواد » (٢) . لكن هذا العنوان الموسوعي ، الذي أراد ماركس إنشاءه ، عندما كان عمره لا يتجاوز السادسة والعشرين بعد ، لم يتم تحقيقه ، في الحقيقة ، اذ كتب بعضاً منه فقط ، بل حتى ان « نقد الإقتصاد السياسي » (العنوان الثاني لرأس المال) ليس أكثر من مقدمة غير كاملة .

وهكذا يمكن القول إن ماركس في كتاباته المبكرة ناقد نشيط لهيجل ولقد قيل مراراً إن « رأس المال » يمثل عودة للجدل الهيجلي . ومن الواضح ان ماركس كان في بعض الفصول مقلداً بشكل جلي ، بل وحتى ناسخاً للاسلوب الهيجلي (٢) . ولكنه اتاح فرصة مناقشة ما يسميه هو « الهيجلية » ، وقال انه مر من خلال مدرسة « المفكر العظيمة » ، حيث قام بتحويل وازالة صوفية

---

(١) نفس المصدر .

(٢) المصدر السابق .

جدله ، بينما احتفظ بنواته العقلية Ratianal Care (١) . لقد ميز بين طريقة العرض وبين منهج البحث ، وكان شديد الاهتمام بتأكيد الطابع التجريبي المتميز لطريقته الخاصة :

« وسوف تختلف طريقة التمثيل بالطبع أساساً عن طريقة الاستقصاء . فإن هدف الاستقصاء هو الكشف عن المسألة بالتفصيل ، تحليل اشكالها المتطورة المختلفة ، وملاحقة الترابط الداخلي بين هذه الاشكال . ولا يمكن ان يتم وصف الحركة كما هي في حقيقتها دون هذا العمل الاولي . واذا ما ثبت نجاح الوصف ، إذا ما ثبت انطباق مادة المسألة على المخطط العقلي ، فلسوف يبدو آنذاك كما لو كنا لا نمتلك غير البناء المثالي .

إن طريقتي الجدلية لا تختلف من حيث الاساس مع الطريقة الجدلية الهيجلية ، بل وتناقضها كلياً . فبالنسبة لهيجل ، إن عملية الفكر (التي تتحول طبيعياً الى ذات Subject مستقلة ، تحت اسم « الفكر ») هي خالقة ما هو ما هو حقيقي ، وما هو حقيقي بالنسبة له مجرد اعلان خارجي عن الفكرة . وبرأيي ، بالمقابل ، المثالي هو لاشيء غير المادي عندما ينتقل ويتحول الى داخل رأس الانسان (٢) .

وكان انتباه ماركس منصباً على تقديم عمل تجريبي ، من خلال العناية

(١) هذا « الغزل » للاسلوب الهيجلي واضح للغاية في المخطوطات المكتوبة خلال عامي ٥٧ – ١٨٥٨ التي هي الاعدادات الاولى لرأس المال . انظر كارل ماركس « نقد الاقتصاد السياسي » .

(٢) مقدمة الطبعة الثانية لرأس المال . سنة ١٨٧٣ .

بـ « تطور البنية الاقتصادية للمجتمع كعملية تاريخية طبيعية » وبدراسة « الصراعات الاجتماعية الناشئة عن القوانين الطبيعية للانتاج الرأسمالي » . ولقد قارن ماركس نفسه بالفيزيائي الذي يدرس العمليات الطبيعية حيثما ظهرت « بالشكل الاكثر نفعيـــة Pragmatic والأقــل تأثراً بالمؤثرات المعيقـــة » ، واختار انكلترا بأسرها كمختبر يدرس فيه النمط Mode الرأسمالي و « علاقات الانتاج وما يتعلق بها » ، لكنه كان منتبهاً تماماً الى أنه « في تحليل الاشكال الاقتصادية لايمكن استخدام لا المجهر ولا المواد الكيميائية » ، ويمكن ان تسد مسدهما ، في التحليل الـسوسيولوجي ، قوة التجريد ، كي تميز ، ولتقوم بتقرير « النتائج المحضة » للعمليات الاجتماعية . لأن « المجتمع المعاصر ليس بلوراً ساكناً ، بـــل متعضياً قادراً على التغير ويمكن فهمه باستمرار خلال عملية التحول » .

وعلى أية حال ، إن فحصاً لبنية « رأس » سيكشف ان جزءاً صغيراً قد كتب فقط بالشكل الذي يمكن ان نسميه النمط المحلي. وهي ، في معظمها، تقديم وتحليل لمعطيات سوسيولوجية وتاريخية . وفي الحقيقة ، فإن « رأس المال » هو ، بين موضوعات اخرى ، واحد من اول ، ومازال اكثر الأعمال التي كتبت في التاريخ الاجتماعي قيمة ، وقدمت بطريقة سوسيولوجية كتاريخ المؤسسات الاجتماعية مثلا .

إنه عمل علمي ، وهو بنفس الوقت اتهام اخلاقي ، يعبر شكلا ومضموناً، عن تصور ماركس النفعي (الذرائعي) للعلم .

وفي اعتقادنا كان ماركس مديناً لهيجل في عديد من الأفكار اكثر مما يقال عادة . إذ كان ، منذ البداية ، خصماً لنظرية هيجـــل السياسية ولفلسفته في

التاريخ . ويبرز لنا نقده ، في كتاباته المبكرة ، درجة تأثره بعدد من المفكرين، وخاصة سان سيمون (١) .

وثمة وجهة نظر قائلة إن ماركس تأثر بسان سيمون قبل ان يبدأ دراسته للفلسفة الهيجلية . إذ كان تأثير سان سيمون كبيراً جداً في المانيا (٢)، ووجدت المذاهب السانسيمونية أتباعاً كثيرين في اقليم الموسيل Mosselle ، حيث اضطر رئيس اساقفتها الى ابداء تحذير ضد هذا الوباء الجديد . وفي نفس الوقت ، حين كان ماركس يكمل دراسته الثانوية في ترير Trier ، كان ثمة داعية سانسيموني يعيش في نفس البلدة اسمه لودفيج غال نشر عام ١٨٣٥ كراساً حول « الطبقات المحظوظة والطبقات العاملة » . كما كان كل من والد ماركس ، ومدير مدرسته منتمين الى الجمعية الادبية نفسها التي كان غال عضواً فيها ، والذي لفت انتباه الشرطة سنة ١٨٣٤ بسبب « ميوله المبرالية (٣) » . بل واكثر من ذلك ،

(١) انظر البحث المشوق الذي كتبه جورج غيرفيتش «سوسيولوجيا ماركس الشاب » ، الذي أعيد طبعه فصلاً عاشراً من كتابه « الوظيفة العقلية للسوسيولوجيا »، باريس ١٩٥١ .

(٢) ي.م . بتلر « الديانة السانسيمونية في المانيا » سنة ١٩٢٦ . وهو يناقش مرحلة محددة لتأثير السانسيمونية .

(٣) ب . نيقولايفسكي ومنشن ـ هلفن : « كارل ماركس : الرجل والمقاتل » ١٩٣٦ ، أنظر أيضاً مكسيم كوفالفسكي ، اثنان حيان (ك . ماركس و هـ سبنسر) في فستنيك يوروبي سنة ١٩٠٩ . ولقد أعاد كوفالفسكي الى الأذهان قول ماركس ان حماه ، لودفيج فون فستفالن كان مريداً متحمساً لسان سيمون .

عندما ذهب ماركس الى جامعة برلين سنة ١٨٣٧ استمع الى محاضرات ادوارد جانز الذي كان سانسيمونياً نشيطاً .

وهكذا أتيحت لماركس فرص الاطلاع الدقيق على المذاهب السانسيمونية حتى قبل دراسته لهيجل . وأول شخص عرفه على الافكار السانسيمونية في بلاد الراين كان صديق ماركس ، مؤسس هس (*) ، الذي كان أحد محرري المجلة الراينية سنة ١٨٤٢ . ومن المحتمل أن هس أيضاً هو الذي لفت انتباه ماركس الى كتاب لورينزفون شتاين « اشتراكية وشيوعية فرنسا المعاصرة » ، الذي قام بعرضه في المجلة الراينية . وكانت ملاحظات فون شتاين على أهداف الاشتراكيين الفرنسيين تكمن في أن عليهم أن يبنوا مذاهبهم بالاستناد الى علم للمجتمع ، وجعل من نفسه ناطقاً باسم هذا العلم الجديد في ألمانيا ، مقابل علوم الدولة القائمة .

وهذا يدلنا على أن ماركس ، على الأقل سنة ١٨٤٦ ، كان وثيق الصلة بالكتابات السانسيمونية . ويظهر ذلك بشكل واضح في تفاصيل انتقاده العنيف لكال غرن في « الأيديولوجيا الألمانية » . ويظهر تأثير سان سيمون على أفكاره

(*) صاحب « دين العمل » الصهيوني الرجعي . راجع بذلك منشورات مركز الأبحاث ، خصوصاً ، « المنظمة الصهيونية العالمية » لأسعد عبد الرحمن ، « اسرائيل الكبرى » للدكتور اسعد رزوق ، وغيرهما ..

ـ المترجم ـ

الخاصة في مقارنات عديدة (١) . فنحن نجد أولاً ، أن ثمة تأكيداً واحداً لدى الكاتبين على دور الصناعة في المجتمع كعمل ينتج فيه الانسان منتجات روحية وكذلك مادية،ومن المحتمل أن يكون الانتقاد المباشر الذي وجهه ماركس لمفهوم العمل لدى هيجل كعمل روحي محض ، منطلقاً أساساً من قراءاته المبكرة لسان سيمون . وثانياً ، هناك مفهوم العلاقة بين المجتمع والدولة ، حيث ان الدولة هي (في ظروف معينة) تجريد لتطور المجتمع الصناعي . لكن هذا المجتمع كذلك (وعلى الأخص البنية الاقتصادية للمجتمع) هو قاعدة الدولة . ويعبر سان سيمون عن هذا بقوله: « إن شكل الحكومة هو مجردشكل، بينما بنية الملكية هي الأساس . إذن هذه البنية هي المستخدمة في الحقيقة كأساس للتغير الاجتماعي (الصناعة) » .

لقد كان ماركس ، في معالجته للاقتصاد السياسي كـ « ايديولوجيا » ، يحاول أن يحلل العلاقات الاجتماعية التي تمثل ، في نظره ، العلاقات الاقتصادية المعبر عنها بقيم ، بأسعار .. الخ .. وكتاباته الاقتصادية هي استمرار لتحليله المبكر للعمل الانساني ، حيث تمثّل فيه الاقتصاد المعاصر بشكل أدق من تمثله للدراسة السوسيولوجية للأنظمة الاقتصادية . وكمثال ، فإن مناقشات ماركس الطويلة للعمل المنتج والعمل غير المنتج (٢) ليست ذات معنى من وجهة نظر النظرية الاقتصادية الحديثة ، ولكن اسهامها كبير في سوسيولوجيا

---

(١) انظر غيرفتيش . المصدر السابق .

(٢) في مخطوطته « نظريات القيمة الزائدة » .

العمل . وأكد شمبتر Schumpeter سمة واحدة لهذه العلاقة بين الاقتصاد والسياسة ، يقول :

« ... وهكذا درس ماركس الرأسمالية سوسيولوجياً ، كمثال ، بدراسة مؤسسة الهيمنة الخاصة على وسائل الانتاج ، آلية المجتمع الرأسمالي التي وضُحَت في نظريته الاقتصادية . هذه النظرية الاقتصادية التي ترينا كيف تتمثل الحقائق Data السوسيولوجية وتتجسّد في مفاهيم كمثل الطبقة ، المصلحة الطبقية ، السلوك الطبقي ، التغير بين الطبقات ، العمل خلال متوسط القيم الاقتصادية ، الأرباح ، الأجور ، الانفاق .. الخ .. وباختصار ، كيف أنها تنتج العملية الاقتصادية التي ستحطم آخر الامر إطارها وتنتج في نفس الوقت الشروط لظهور عالم اجتماعي آخر » (١) .

ومن المهم طبعاً ، عندما يدرس المرء العناية الكبيرة التي أولاها ماركس لإيجاد علم للمجتمع الذي سيكمل ويحيط العلوم الاجتماعية الموجودة أن يلاحظ أنه لم يستخدم مصطلح « السوسيولوجيا» في اي من كتاباته ، على الرغم من ان معاصراً له ، هو كونت (٢) Conte ، قد وضع هذا الاصطلاح قيد التداول . ومن المحتمل ان يكون تفسير ذلك يكمن في أن معارضة ماركس « الفلسفة الوضعية» Positive Philosophy و كونت وآراءه .

---

(١) ج . شمبتر « الرأسمالية ، والاشتراكية ، والديمقراطية » نيويورك ١٩٤٢ ،ص ٤٢ .

(٢) يعتبر اوغست كونت مؤسس علم الاجتماع الحديث ، واول من أطلق عليه هذا الاسم . تحمل نظريته الوضعية بذور دفاع عن النزعة التسلطية وعن مجتمع الطبقة الوسطى . دعا الى تقييد الفكر بالتجربة المباشرة. ولكن نتيجة الوضعية الكونتية كانت=

ومن الواضح انه لم يقرأ كونت قبل ١٨٦٦ . ولقد جعلته الحماسة التي انتشرت في انكلترا وفرنسا آنذاك لصالح كونت ، جعلتــه يستغرب ذلك ويستهجنه ، ويبدأ بدراسة أعمال كونت ، حيث سرعان ما أثرت فيه شخصيته الموسوعية . لكنه وضعها فوراً بمرتبة أدنى لدى مقارنتها بكتابات هيجل (١) . واحتقر ظهورها المضاد للدين ، لأن الفلسفة الوضعية بدت له « ضاربة الجذور في التربة الكاثوليكية » (٢) . كما يلاحظ مستهزئاً لدى مقارنة كونت بواحد من أتباعه الانجليز أن « الفلسفة الوضعية تعني جهلا بكل شيء موضوعي » (٣)

ورفض ماركس كلياً مذهب كونت الاجتماعي ، وأدان خاصة ، روحه اللاهوتية والطائفية ، وهياجه النبوي Prophetic ، دون ان يشعر بالحاجة الى اخضاع النظرية بجملها للنقد المنهجي . ومن المحتمل ان ماركس قوّم كونت من خلال نشاطات مريديه فحسب ، وخاصة الافرنسيين ، الذين رغبوا في أن يجعلوا من الوضعية فلسفة الحركة العمالية . ويبدو ذلك اولا في عدائه للوضعيين الذين أرادوا نشر مذهب فلسفي خاص للحركة العمالية ، يبعث الحيــاة ثانية في رفضه

= مذهباً دينياً يشتمل على تأليه لشخصه من قبل اتباعه الذين يطيعونه طاعة عمياء، وتقديس لأسماء ورموز وعلاقات فارغة وتافهة . بل ان الوضعية الكونتية نفسها كانت تشهيراً، كما يقول ماركوزه ، بالعقل وبقدرته على المعرفة . راجع بذلك د. عبد الكريم اليافي ، تمهيد في علم الاجتماع . مطبوعات جامعة دمشق. هربرت ماركوزه ، العقل والثورة ، ترجمة د . فؤاد زكريا . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (ص ٣٢٧ — ٣٤٤) .

ــ المترجم ــ

(١) من ماركس الى انجلز ، ٧ تموز ١٨٦٦ .

(٢) أنظر رأس المال ، المجلد الاول . حيث كتب ماركس : « بالمقارنة مع الانسكلوبيديا هيجل ، تبدو أطروحات كونت من عمل تلميذ ، لكنه ذو اهمية محلية » .

(٣) من ماركس الى انجلز ، ٢٠ آذار ١٨٦٩ .

للتأملات الفلسفية حول دوران التاريخ ، وفي إنكاره للأيديولوجيات ، ولكن على شكل دين « وضعي » جديد (١) ، كما ويبدو ، ثانياً ، في الخلاف حول طبيعة العلم الذي يحاول ماركس إيجاده. وهو بالطبع يشبه الى حد كبير السوسيولوجيا كما حدد موضوعها كونت . ولكن ثمة كذلك خلافات كبيرة تبرز موقف ماركس الانتقادي . وإن « علم المجتمع » الذي أراده ، والذي سندرسه بعد قليل ، هو أقرب بكثير الى الاهتمام المعاصر بالسوسيولوجيا من تلك النظرية التي أعطت اسمها فحسب الى المريدين(*)

---

(١) يرى معظم الكتاب الماركسيين لدى دراستهم ماركس وكونت انهما صاحبا « منهجين » متزاحمين . أنظر مثلاً : دي كيلس – كراوز « الكونتية الماركسية » في « العلم الاجتماعي » ، تشرين اول ١٩٠١ . لوسي بريننانت « ماركس وكونت » في « حول اشعاع الماركسية » المجلد الثاني ، الناشر الاجتماعي ، باريس ، ١٩٣٧ .

بول لابرين « التأثير السياسي والاجتماعي للوضعية والماركسية » . المصدر السابق .

(*) يقصد المؤلف بذلك ان منجزات ماركس فيما سماه بـ « علم المجتمع » اقرب الى السوسيولوجيا من نظرية (او سوسيولوجيا) كونت، التي لاتحمل من السوسيولوجيا الا اسما .

– المترجم –

افريقيا تستعمر ثانية (*)

بقلم: باسيل دافيدسون

ترجمة: شحاذه الحوشان

إن أزمة افريقيا هي أزمة عميقة وحقيقية. وحسبنا أن نلقي نظرة عابرة على أحوالها كي نتأكد من ذلك. فدولة جنوب أفريقيا البيضاء التي تدعمها رؤوس الأموال الغربية المتدفقة عليها بتزايد (تتجاوز نسبته ١٠٪ سنوياً) تهدد «الشمال الأسود» وتنقذ مستعمري روديسيا البيض من هلاك محتم، وتساند البرتغاليين الذين يترنحون في أنغولا وغينيا وموزامبيق، وترسي قواعد الامبريالية الجديدة. وتتسلط فرنسا وشركاؤها في السوق المشتركة على الأسواق الافريقية فتتقلص شيئاً فشيئاً سيادة المستعمرات الفرنسية القديمة. ويتدخل الجيش الفرنسي في تشاد وكأن شيئاً لم يتغير بعد ١٩٦٠. وتثابر الدكتاتورية البرتغالية على عنادها في

(*) عن مجلة «الأزمنة الحديثة» الفرنسية Revue: Les Temps Modernes - N°297 B. Davidson - L' Afrique recolonisée.

أطول حرب استعمارية عرفتها القارة مزودة" بأسلحة شركائها في الحلف الأطلسي . زد على ذلك شتى أشكال التدخل والتغلغل والعدوان التي تعبر عن نفسها بمختلف الطرق الملتوية كالاتفاقات الاقتصادية والبرامج الثقافية والمساعدات التقنية وألوان متعددة من الارتباطات التي تسهم كلها في تحقيق الغرض نفسه مهما تسترت أو تظاهرت بالبراءة .

ماذا يفعل الافريقيون حيـــال هذه الهجمات كي يحافظوا على استقلالهم وسيادتهم وحريتهم في اختيار مصيرهم ؟ لقد ولدت منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ بأمل أن تكون أداة للوحدة الافريقية ، لكنها لم تعد اليوم سوى قصبة في مهب الصراعات الداخلية . أما خطط التعاون الاقليمي في افريقيا الغربية والشرقية والشمالية فهي تنام في الدروج مع ما تضمنته من عبارات زاخرة بالأماني والآمال .

لم كل ذلك ؟...

ينبغي أن نعود الى النظرية الكلاسيكية في « التطور » . يقول روستو وأتباعه إن البلاد الافريقية هي بلدان متخلفة ، ويطلقون عليها بشيء من المنّة لقب البلاد « النامية » أو « الآخذة بالنمو » . ثم يضيفون : إن بلدان افريقيا تتبع في تطورها الخطى التي سار عليها ركب البلدان المتقدمة مع فارق في المرحلة فقط. ثم يبسطون الأمور كي يستنتجوا أن الافريقيـين لا يفتقرون في تطورهم إلا الى اضافات على البُنى التحتية والصناعات التي يملكونها ، على أن يطوروا هذه البُنى بحيث تبلغ نقطة « الانفصام » السحرية . وعندئذٍ سترتفع هذه البلاد المباركة حتى السماء وتصبح بلاداً متطورة ومجتمعاً متخماً بأعاجيب العصر الحديث . فـلا تختلف افريقيا عن أمريكا وفرنسا وبريطانيا إلا اختلافاً مرحلياً ، وماعليها كي تتسلق هضاب

الثراء والرفاه سوى اتباع خطى هذه النماذج الثرية . تلك هي النظرية الجذابة التي استهوى بريقها عدداً كبيراً من الناس، سواء أكان ذلك في افريقيا أو في سواها من البلدان . وبديهي أننا إذا أمعنا الفكر في هذه النظرية فإنها تفقد بريقها لا لشيء إلا لكونها تحصر خير البشرية الأسمى في التراكم المتزايد لسلع الاستهلاك الذي يحدث في البلدان « المتقدمة » .

لاريب في أن الاستعمار قد غير افريقيا ولكنه غيرها في اتجاه خاص ، وأسهم في اخفاق وسقوط البنى الاجتماعية والاقتصادية في افريقيا ماقبل الاستعمار دون أن يقيم عوضاً عنها بُنى صناعية حديثة . ولاريب في أن كثيراً من التقنيات قد استوردت خلال فترة الاستعمار ، فمدت الخطوط الحديدية كي تربط الموانىء بالداخل ، وحفرت المناجم ، وأقيمت الزراعات المختلفة ، ولكن جميع التقنيات (باستثناء مصر) كانت تقنيات لم تتمثلها البلاد . فكانت افريقيا تجهد لأن تتوصل الى المعرفة الميكانيكية ، ولكنها لم تكن قد تصنعت فلم تتمثل التكنولوجيا . لقد سيق الفلاحون بأعداد كبيرة الى المناجم والمؤسسات البدائية الأخرى للصناعات الاستعمارية ، وعندما لم تكن السلطات الاستعمارية تفرض السخرة عليهم ، كانت ترغمهم على العمل في مؤسساتها عوضاً عن الضرائب المفروضة عليهم لأنهم كانوا يجهلون النقد في نظامهم الاقتصادي . وأجادوا العمل في الصناعة لكنهم كانوا ضحايا التمييز العنصري الضاري الذي كان يستهدف حماية الرجل الأبيض وأجوره المرتفعة واعتبر السود عمالاً غير مهرة ولم يُدمجوا في المجتمع الصناعي بأي شكل من الأشكال .

وصحيح ايضاً أن المدن قد نمت بسرعة هائلة بعد عام ١٩٤٥ ، وتضاعف عدد سكانها من الافريقيين ، ولكن ذلك لم يكن يعني أنهم قد تحضروا ومروا

بتجربة الانتقال الاقتصادي المنظم من القاعدة الريفيـــة الى القاعدة الحضارية . ولقد أزعج تدفقهم نحو المدن الادارة الاستعمارية ، فأخذت تضع العراقيل في طريقه بمختلف السبل . وكان عليهم أن يظلوا شغيلة مهاجرين الى المدن لا يفيدون من قدرتهم على العمل ومن شجاعتهم إلا إذا بقوا فلاحين . وفرض على الفلاحين الذين وفدوا المدينة بعد عام ١٩٤٥ أن يعيشوا حيـــاة لا هي حضرية ولا هي فلاحية . وقامت في افريقيا مدن عصرية ولكنها بقيت امتيازاً لغير الافريقيين وملكاً لهم. وبما أنه كان لابد لأفريقيي المدن أن يقيموا في مكان ما (مع أنه لم يكن لهم في نظر السلطة وجود حقيقي في المدن فكانت تعتبرهم مهاجرين غير شرعيين وفدوا من القرى) فقد أقاموا في أشباح مدن وفي أكواخ من القش او التنك او الجص تنضح بالاقذار ، وتتكاثر حول أحياء البيض ، يعاني الافريقيون فيها حياة الفاقة والبؤس، وتخصص لكل عدة آلاف منهم كميات قليلة من الماء الذي كثيراً ما حرموا منه ، اللهم إلا ما ترشحه الأقنية القذرة التي تبعث روائحها على القيء . وخلاصة القول كانت تلك المساكن اماكن فظيعة يضع السواح أيديهم على أنوفهم عندما يمرون بها. لقد قيل إنه يجب أن نطوي صفحة تلك الأهوال لأن المرارة لا تولد سوى المرارة. أما أنا فلا اعتقد ذلك : أولاً لأن تلك الفظاعات لم يقتصر حدوثها على الماضي ، بل هي تتكرر اليوم في بعض البلدان وتزداد سوءاً في بلدان أخرى ، كما أني لا أظن ان البشرية تستطيع المضي في تقدمها والمصالحة مع ذاتها وهي ترفض ان تضع نصب أعينها مسؤولياتها واخفاقاتها وجرائمها . لن نجني أية فائدة من الزعم بأن الاسلوب الاستعماري كان « جيداً » في افريقيا . وكأية تجربة طويلة ومعقدة كان لابد أن ينتج عنها « أمر او أمران جيّدان » ، غير أنهما كانا من الناحية التاريخية نادرين وقليلي الانتشار . ذلك أنه عندما كانت تتاح هنا أو هناك فرص التعليم العالي لبعض

الافريقيين كان هؤلاء الطلاب يتخرجون محامين او قساوسة او مدرسي أدب فرنسي او انكليزي أو أساتذة في الحقوق المدنية الغربية او مدرسين للتاريخ الفرنسي او لجغرافية بريطانيا أو الآداب البرتغالية الخ .. ولم يتخرج منها مطلقاً مهندسون ورجال علم متمكنون في المعرفة الصناعية . وإذن فقد زاد الاستعمار من خطورة الأزمة الكامنة منذ القرن التاسع عشر وعجّل في تصدع البُنى وتفجير الأزمة ودفع بأفريقيا الى مرحلة انتقال اجتماعي واقتصادي طويلة الأمد . هـذا مافعله النظام الاستعماري . ولم يحدث أي تغيير بنـاء . إن التبشير بالاخلاق لا يجدي نفعاً ولم يقم النظام الاستعماري من أجل رفاه الافريقيين الذين يعانون من تزايد قوى العالم الصناعي وتوتره ويشعرون بافتقارهم البائس الى مؤسسات جديرة قادرة على النهوض بمصالحهم وحمايتها، وبدونها لا يتحقق لهم خلاص. لقد كانت الأزمة في افريقيا وما تزال أزمة ديناميكية قلبت وما تزال تقلب الأنماط القائمة فيها . وإذا كان التفجر السكاني ، بالاضافة الى بعض العوامل الأخرى ، قد بدأ منذ القرن التاسع عشر يقوّض بُنى الماضي فإنه قد فجرها بعد عام ١٩٣٥ . وعندما حصلت اكثر بلدان افريقيا على استقلالها حوالي عام ١٩٦٠ كانت نسبة سكان الريف فيها تتراوح بين ٨٠ ــ ٩٠٪ ، واستمرت زيادة السكان فيها بمعدل ٢ ــ ٣٪ ، بل هي تقارب ٣٪ . وكان عليهم أن يتحولوا من ريفيين الى متحضرين (مع كل مايترتب على ذلك على مستوى وسائل وعلاقات الانتاج) في زمن تسارع فيه التفجر السكاني بحيث قدر العلماء أن مجموع سكان القارة سوف يتضاعف حوالي عام ٢٠٠٠ ، وبحيث يبقى هذا الأمر مشكلة افريقيا الكبرى . وحتى عام ١٨٥٠ تقريباً كانت زيادة السكان في افريقيا تسير سيراً بطيئاً ومنتظماً . فارتفع عددهم من بضعة ملايين الى ١٥٠ مليوناً ، وكانت بُنى الانتاج والتبادل قادرة على

تأمين مستوى مقبول لهم . ونعم بعضهم بمستوى جيد (وبعضهم بمستوى عال جداً) ، بينا كان القليلون منهم في مستوى جد متردٍ . أما في أيامنا هذه فقد تغيرت الأحوال لأن تفجر السكان يعرضهم لمواجهة أزمة خطيرة شبيهة بالأزمة الحادة التي عانتها قارة الهند من جراء فرط تزايد السكان بالقياس الى وسائل الحياة .

وبدأ منذ عشر سنوات على الأقل معدل زيادة السكان يرتفع على معدل النمو الاقتصادي وبخاصة في المجال الغذائي، وليس ثمة أمل بردم الهوة بينها . واذا كانت زيادة الانتاج القومي قد بلغت في السنوات العشر الأولى المعدل المقرر للزيادة السنوية (أي حوالي ٥٪) فكلنا يعلم ان معدلات الزيادة هذه لاتكفي . وعلى الرغم من أن زهاء ٨٠٪ من سكان القارة الافريقية يعملون في انتاج المواد الغذائية فإنهم يستوردون كميات متزايدة منها كل عام، إلا أن ذلك لايحل المشكلة لأنه يسبب افقاراً سنوياً متصاعداً لمعظم السكان .

لِمَ لانغيّر اذن تلك البُنى ؟

من الوجهة التاريخية كانت الأزمة متوقعة وقادرة على أن تؤتي ثمارها . وهي ليست أزمة انحدار بل أزمة نمو ، تنتمي الى نوع من الأنماط التاريخية الأساسية التي دفعت شعوب القارات الأخرى لأن تغير بناها وتنشىء بدلاً منها بُنىً جديدة. وقادت جماهير غفيرة من هذه الشعوب الى طرق جديدة في الانتاج وفي علاقات الانتاج . ولكننا نواجه هنا مظاهر أخرى من التطور لاتقل فعالية وديناميكية عن سواها . فقد حصلت المستعمرات الافريقية السابقة على سيادة سياسية كاملة ولكنها ورثت الأوضاع الاستعمارية ذاتها ، ولا تزال في إطار بُنى

نظام العالم الذي استعمرها وهدفاً واضحاً لاستثماراته . ومثل في يكابر في ذلك أو يدعي نقيضه مثل من يخبىء رأسه في الرمال .

وثمة اشكال ثلاثة في الاستغلال تتعرض لها الشعوب المستعمرة على الرغم من استقلالها السياسي وهي :

أولا : لقد اتجهت « علاقات التبادل » طوال خمسة عشر عاماً أو اكثر ضد معظم شعوب العالم الثالث واضطرتهم لأن يقبلوا بتخفيض منتظم في اسعار صادراتهم، في حين كانت اسعار وارداتهم لاترتفع بالانتظام نفسه، فحدث من جراء ذلك نزيف في ثروات البلاد الفقيرة باتجاه البلاد المتقدمة . ودفعاً لأي اتهام بأني أثير نقاطاً ايديولوجية خاصة فإني اضيف بوضوح تام أن الكتلة الشيوعية تجني من هذا الوضع ما تجنيه الكتلة الرأسمالية . وصحيح أن الكتلة الرأسمالية هي التي حددت وما تزال تحدد « علاقات التبادل » أصلاً ، ولكن الكتلة الشيوعية تقبل هـذه القرارات عن طيب خاطر . وهكذا ينبغي على البلدان الفقيرة أن تزيد مدفوعاتها باستمرار ثمناً لما تحتاج اليه من أغذية او معدات آلية او اي منتوج آخر .

ثانيا : ان ترسانة تقنيات استثمار التبادل التي تستخدمها البلاد الغنية تتضمن وسيلة مشروعة اخرى لامتصاص ثروات الفقراء، ألا وهي توظيف رؤوس الأموال الذي يدر ارباحاً تعود بسهولة الى موطنها الأول . ولسنا الآن حيال صيغ الاستغلال البدائية كشركات المعادن التي تمركزت في افريقيا وبرعت في نقل أرباحها السنوية معفاة من الرسوم الى الوطن الأم صاحب الفضل والذي يتباهى بما قدمه للافريقيين من خير عميم !! إننا نشهد اليوم طوقاً أشد مكراً : فالتوظيفات الأجنبية تحرك رؤوس الأموال التي قد تجدها داخل البلاد الفقيرة ثم تنشىء رويداً رويداً أشكالاً جديدة من مؤسسات الاستعمار الجديد تعمل لصالح الشريك الأقوى.

تلك هي الأشياء التي تقدم لنا على أنها «التطور» !!! انها بالنسبة للافريقيين نمو بلا تطور ، بل انها في الواقع ليست نمواً !!! دعنا نتأمل حالة أنغولا مثلاً وهي المستعمرة البرتغالية على شاطىء جنوب غربي افريقيا !! لعلها مثال متطرف ولكنه يوضح لنا أمثلة اخرى كثيرة .

قيل ان الستينات كانت سنوات طفرة اقتصادية في أنغولا كما يتبين من دراسة حديثة أجرتها (فاينانشل تايمز) بتاريخ ٢٣ حزيران ١٩٦٩ التي قالت ان الانتاج الصناعي قد ازداد في أنغولا خلال الستينات « بمعدل وسطي قدره ١١٪ » وان « الأموال الموظفة في الصناعـــة خلال السنوات الأربع الأخيرة التي تملك احصائيات عنها كانت على التوالي : عام ١٩٦٤ : ٢و٢ مليون جنيه استرليني ؛ ١٩٦٥ : ٥و٤ مليون جنيـــه استرليني ، ١٩٦٦ : ٧و٨ مليون ؛ ١٩٦٧ : ٥و٢٢ مليون » .

ولاريب في أن رأس المال الموظف كان معظمه برتغالياً سواء أتى من البرتغال أو وجد داخل البلاد . ثم بدأت منذ ١٩٦٤ تظهر رؤوس أموال غير برتغالية . ومنذ ١٩٦٤ ، فتحت الأبواب في وجه التوظيفات الأجنبية في الصناعة الأنغولية ولم تبق سوى صناعات قليلة يكون رأس المال البرتغالي الأكثرية فيها . وفتحت ضمـانات تكفل عودة الأموال الأجنبية مع أرباحها الى موطنها الأصلي ومنها : اعفاءات من الضرائب حتى عشر سنوات تبعاً لطبيعة الصناعة او موقعها، والغـــاء الرسوم الجمركية على استيراد المواد الأولية والتجهيزات ... ومنحت الامتيازات نفسها للأموال البرتغالية غير أن رؤوس الأموال الأجنبية تمتعت بميزة « الاستعادة » .

إنها لوحة مغرية !!! تخلى البرتغاليون « الطيبون » عن الرقابة الصارمـة على الاحتكارات وفتحوا البـاب على مصراعيه في أنغولا أمام مبادرات وعلوم

الانكليز والأمريكان والألمان والافريقيين الجنوبيين والدانمركيين والسويديين وهلم جرا ... واستقرت في انغولا جميع هذه الشعوب الصناعية « الطيبة » من أجـل تضييع هذا البلد المسكين المتخلف الذي حرم طويلاً من نعم الحضارة المعاصرة !!!

أما الحقيقة فهي شيء آخر . فاذا كانت الطفرة قد أسهمت في بعث النمو داخل البنى الاجتماعية والاقتصادية ، فإن هذه البنى قد استبعدت بالتحديد غالبية سكان البلاد، وكل ما يسع النمو عمله هو تدعيم البنى التي يرتكز عليها النظام القائم ، وهو الذي يُعامل بموجبه ٩٨٪ من سكان البلاد كأنصاف مواطنين و كأشباه الناس و كأناس لاحقوق لهم . إنني واثق أن تغييرات قـد طرأت على نص الدستور البرتغالي بعد ١٩٦٠ بقليل . ولكن جميع تلك التعديلات لم تحدث مع شديد الاسف أي تبدل محسوس في النظام القائم . فلم تتطور أنغولا بل آلة الاستغلال هي التي تطورت ، وما جناه البعض من رأس مال أو أرباح أو أسهم لم ينتج عن نمو عام للثروة، بل بالأحرى عن نزيف متزايد للشعوب الفقيرة التي لا تملك وسيلة مشروعة ومسالمة للدفاع عن نفسها . ولم يستهدف ما أنجز في أنغولا تغيير البنى القائمة ، بل تعزيزها . فإن ندعو ذلك تطوراً يعني أننا نهزأ بالعالم .

ولا يسعنا إلا أن نستخلص العبر . فالاتجاه في البلاد المستقلة الأخرى لا يختلف عنه في أنغولا ، وقد يكون أقل قسوة وأقل تجدداً ولكنه يظل نفسه . كانت تلك البلاد خلال مراحل الاستعمار مناطق دخل محيطية لكل من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وغيرها . وكان تخلفها شرطاً أساسياً لتقدم البلاد البلاد الامبريالية . وعندما اضطر الامبرياليون ان يسحبوا سلطاتهم السياسية المبـاشرة بصورة أو بأخرى قرروا انه يجب ان يظل الإطار الاقتصادي كما هو اصلاً . ثم ادرك الناهبون

منهم بعد عام ١٩٥٠ انه يجب ان يهيئوا السبيل لتراجع محتمل ، غير ان اكثر زعمائهم شجبوا هذا الرأي وراحوا يدعمون البنى التي سيخلفونها بعدهم ويهيئون ترقية الافريقيين الذين لا يرغبون في تغيير هـذه البنى . وتحدث البريطانيون عن تكوين « طبقة متوسطة افريقية » ، ويحث الفرنسيون فيما بعد عن « محاورين شرعيين » ، أي عن أناس يمكن الالتقاء معهم على صعيد واحد . وخلاصة القول لقد اطمأنوا الى إتقان مناوراتهم . وعندما اشتدت ضغوط المطالبة بالاستقلال وزحزحتهم عن كراسيهم غادروا البلاد تداعبهم الرؤى بأنهم سوف يعوضون في المجالات الاقتصادية ما قد خسروه على الصعيد السياسي .

ثم بدأت الاضطرابات ، وعندئذ صاحوا قائلين : إن الذنب ذنب الناس لا ذنب المؤسسات . فقد خلّفنا للافريقيين مؤسسات غاية في الجودة والتركيز ولكنهم خرّبوها .

واليوم وباستثناء حالات خاصة ، فإن إعادة استعمار افريقيا تسير بخطى حثيثة على الرغم من دلائل الكارثـة — ويتحقق ذلك إمـا عن طريق التغلغل الايديولوجي أو باستخدام « علاقات التبادل » أو تطوير صيغ مبتكرة من التوظيفات الرأسمالية وصعود « طبقة متوسطة من النخبة » . وتندمج إعـادة الاستعمار هذه بما يسمى بالبرنامج الشامل لبناء الاقتصاد الرأسمالي في افريقيا . ولا يمكن أن يعني بنـاء اقتصاد في بلاد ليست ذات نمط رأسمالي سوى بناء طبقات رأسمالية . ولقد كان ذلك يعنى في الربع الأخـير من القرن التاسع عشر بناء طبقات رأسمالية — المفروض أن تكون طبقات قيادية — تظل ، بل ينبغي لها أن تظل ، الشريك الأضعف للطبقات المشابهة لها في البلاد الغنية بحيث يوجب عليها ضعفها

أن تدعم مراكزها على أشلاء مواطنيها وتمارس السلطة ضدهم وتلجأ الى هذا الشكل أو ذاك من أشكال الحكم المستبد . وتفترض مسيرة كهذه ألا تساهم غالبية الشعب الساحقة في ماهي واصلة اليه ، وأن ترضى بهبوط مستوى معيشتها (ولا مناص من هذا الهبوط في الظروف الراهنة) في حين تزداد امتيازات وثروات أقلية صغيرة منه . وخلاصة القول إن ذلك يفترض ان يرضخ الشعب لمصيره هادئاً طيّعاً ، وأن يقبل الافريقيون اغنياء كانوا أم جيـــاعاً بأن يمثلوا دور الشريك الأدنى والأداة الطيعة للأجانب الذين تزداد ثرواتهم ويتحكمون بمصيرهم (وهذا أمر لا مناص منه في الظروف الراهنة) . إن كل الجهود المستمرة التي تبذل من اجل بناء وتدعيم البنى القائمة في افريقيا هي أعجز من أن تأتي بشيء آخر . ويتضح لنا دون أن نستشهد بما حدث ويحدث في أكثرية بلدان أمريكا اللاتينية أن الابقاء على البُنى الاقتصادية الغربية في القارة الافريقية لا يمكن أن يتحقق إلا بالتغلغـــل الغربي المتصاعد الذي لا يعني بدوره سوى التبعية وتزايد الرقابة الغربية أي بالاختصار نمط من أنماط إعادة الاستعمار .

ولا يسعنا إلا أن نستعرض بعض الأمثلة الواضحة لهذا النمط من إعادة الاستعمار في المستعمرات الفرنسية السابقة. لقد أبرزت المستعمرة الفرنسية السابقة ساحل العاج ، شأنها في ذلك شأن نيجيريا سابقاً وغينيا الآن، على أنها نموذج للتطور الناجح . غير أن أي إنسان محب للبحث يقيم في أبيجان لا يلبث أن يدرك أن تطور ساحل العاج هو تطور الرأسمالية الفرنسية وليس تطوراً افريقياً . كما أن كل من تابع وما يزال يتتبع سياسة هذه الجمهورية وبخاصة فيما يتعلق بموقفها من الأقطار الافريقية الأخرى ومن حرب الانفصال النيجيرية لا يلبث طويلا حتى يدرك أنها سياسة فرنسا قبل أن تكون سياسة افريقيا . ففي ساحل العاج من الرأسماليين

العقاريين. وبينهم بعض الافريقيين، أكثر مما كان فيها قبل اثني عشر عاماً وهم يتعاطون « الزراعات المنتجة » للتصدير على حساب « الزراعات الغذائية » التي يفتقر إليها السكان المتزايدون . وقد يعتبر ذلك نجاحاً لكنه نجاح الأقلية الضئيلة المتميزة الذي حرمت منه الأكثرية الساحقة التي تستبعدها طبيعة هذا النظام .

ماهي إذن التقديرات المرتقبة للسبعينات ؟.. إنهـا نظرياً ثلاثة أنواع، وثلاثة فقط :

أولها أن « البرنامج العام » سوف يتحقق كلية فتدعّم بنى « النخبة » القائمة وتنمو وتتسع بحيث ينتهي الأمر بالافريقيين إلى امتلاك بناهم الرأسمالية المستقلة ثم يطيرون في لحظة من اللحظات إلى فردوس التوسع التكنولوجي والاقتصادي بحيث يساهم بشكل أو بآخر جميع السكان في ذلك التقدم ويفيدون منه . غير أن تحليل الأحداث التي مرت بافريقيا في السنوات الأخيرة يجعلنا نستنتج أن هذه التقديرات هي بعيدة عن الواقع وغير قابلة للتحقيق ، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار التيارات الراهنة كالتفجر السكاني والافقار الناتج عنه ، وطبيعة المساعدات الخارجية التي تختار بعناية فائقة والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعوامل أخرى تضغط على قلة عدد نخبة مابعد الرأسمالية وضعفها الاقتصادي .

ويبدو لي أنه لايبقى أمام الافريقيين سوى اختيار أحد احتمالين لاثالث لها خلال السبعينات . فإما أن تستمر الأحوال الراهنة كما هي فتبقى البُنى القائمة وتدعم و « تدفع باتجاه التطور » : فلا تقود الى مستوى من الاستقلال أعلى أو أدنى مما هو عليه الآن ، وتؤدي شاءت ذلك أم أبت الى تعميق « التغلغل الأجنبي والسيطرة الخارجية » (سواء أكان ذلك من الغرب أو الشرق) ، وتجرد الافريقيين من السيطرة على تاريخهم ، وتوسع الهوّة بين الزعماء وشعوبهم. والنتيجة

الحتمية لكل هذا هي استمرار الفوضى وانقلاب فريق على آخر وحتمية اللجوء الى أنظمة قوية قادرة على حفظ النظام والقانون عن طريق الاستعانة بالجيش والشرطة. ثم تظهر التناقضات الكامنة وتبلغ مرحلة التأزم والفوضى ويصبح مبدأ الاستقلال في افريقيا مغالطة لا معنى لها.

وهذا احتمال يرتسم اليوم في أفق أكثر بلدان افريقيا بمظاهر وعلى درجات متفاوتة. وهو النتيجة المنطقية لاستمرار افريقيا منطقة من « المناطق النامية المحيطية » ضمن البنية العامة « للعالم المتطور »، إنها إعـادة استعمار افريقيا. وسينتخب رؤساء أو (يستولون على الحكم بعد تصفية خصومهم أو وضعهم في السجون)، وستظل الأعلام تخفق ولو بقوة الحراب، وتتردد الأناشيد الوطنية يرددها طلاب المدارس في المطارات أو غيرها، ولكن ذلك كله سيبدو قذراً وسخيفاً. وها نحن نجد أنفسنا بصورة مفجعة حيث بدأنا.

هذا هو التوقع الحقيقي، لأنه يحدث كل يوم وكل شهر وكل سنة. بل هل ثمة توقع آخر؟ لا حاجة بنا للتعمق في فهم التاريخ كي ندرك أن الاستهزاء باحدى القارات لا يمكن أن يدوم الى الأبد، وأن الافريقيين سيهتدون عاجلاً أم آجلاً الى طريق تجاوز أنظمتهم وثقافتهم القديمة الى أنظمة وثقافة جديدة توفر لهم الازدهار والرفاه والانتقال إلى ارضية حضارية وانهم سينجزون تحولهم الصناعي والسيطرة على تاريخهم بكل ما في هذه الكلمة من معنى وقوة. وقد لا يكفي هذا النوع من التفاؤل للاقناع، مع أن التاريخ قد أثبت قوته. فيجدر بنا إذن أن نتساءل عما سيحدث فعلاً.

وما سوف يحدث حقيقةً هو: الثورة الافريقية. فإما أن يحتفظ الافريقيون بالأنظمة والبُنى العاجزة عن الارتفاع بالمستوى العام لحياتهم ارتفاعاً محسوساً وعن الوصول بهم الى تقدم اجتماعي مقبول وحافز للنشاط والعمل، وإما

أن يتجاوزوها الى أنظمة افضل منها - إما أن يظلوا ضحايا نظام عالمي سيّد بدونهم (أو بالأحرى ضدهم) ، وإما أن يطابقوا بين وسائلهم في العمل وبين متطلبات العصر الحديث وهـــذا هو الاحتمال الوحيد الذي يضمن لهم التقدم الاجتماعي والاقتصادي والمساهمة الدولية على أساسٍ من الاحترام والمساواة . ولقد قدمت لهم كل من أوروبا وأمريكا وآسيا أمثلة عديدة من الاختيار الضروري بين التغيير أو السقوط .

والسؤال يبقى : أي صنفٍ من الثورات هي ؟

لا بدّ من التنويه أولاً – لاسكات النقد وتجريده من سلاحه – أن المسألة ليست مسألة توريد أية ثورة كانت الى افريقيا ؛ لأن الثورة التي تفتقر اليها افريقيا لا يمكن أن تأتيها من روسيا أو الصين أو كوبا ، كما أنه لا يمكن أن تأتيها من الولايات المتحدة أو من أوروبا الغربية . فإن كان ثمة ثورة تستطيع انقاذ افريقيا فليست تلك التي تكون نسخةً ردية عن ثورات الآخرين ، إنما هي الثورة التي تولد على أرضها وتنبت جذورها في تربتها وتتطور منسجمة مع منطق تاريخ القارة . ترى أيكون كل هـــذا محض كلام ؟ لا أظن . يستطيع أيُ مراقب دقيق الملاحظة في أيامنا هذه التي لم ترتسم بعدُ فيها دلالات حقيقية أن يستشفّ ما ستكونه الثورة الافريقية من خلال بعض الاتجاهـــات وبعض طرق التفكير وأشكال المنظمات . ان هذه المؤشرات ترسم الخطوط العريضة لثورة مزدوجة : ثورة على بنى الماضي التقليدية وثورة في نفس الوقت على البنى الموروثة عن المرحلة الاستعمارية . يمكننا أن نستكشف ذلك من تغيرات مختلفـــة وظواهر متعددة منها على سبيل المثال : النتائج التي أدت الى سقوط أول اتحاد فدرالي في نيجيريا عام ١٩٦٦ .

وتسترعي انتباهنا الجهود المبذولة حالياً لايجاد أنظمة محلية في الولايات التي انبثقت عن الشمال تحل محل البُنى التقليدية الأوليغارشيه التي نشأت في زمن الاستعمار . كما نستطيع أن نرى بوضوح أكثر دلالات تغيير جذري في جمهورية تانزانيا التي ثارت ضدد النخبة ، منذ اعلان آروشا عـام ١٩٦٧ ،وبدأت المهمة الشاقة في بعث الحياة الديمقراطية في أجهزة الحياة الادارية اليومية . ويمكننا أن نشهد الظاهرة نفسها بأشكال أخرى وفي بلاد أخرى لا يتسع مجالنا لذكرها .

ولعلّنا نستطيع أن نتتبع بسهولة أكثر مسيرة هذا التطور في الحالات المتطرفة للمستعمرات البرتغالية حيث اضطرت الحركات الوطنية فيها الى ضراوة المقاومة المسلّحة بعد أن استنفدت الوسائل السلمية والاصلاحية من أجل مواجهة عملية الخنق الاستعماري . كما تتضح الطبيعة المزدوجة للثورة في أوضاع كل من غينيا وأنغولا وموزامبيق التي يجـدر بنا أن نتفحصها على الرغم من طابعها الاستثنائي . لقد انتقلت هذه البلاد في الستينات الى المقاومة المسلحة وحرب العصابات وكان نحو ٩٩٪ من سكانها ريفيين وأميين يخضعون لمعتقدات وبُنى ثقافية تعود الى ما قبل العهد الاستعماري وكان على قادة المقاومة وملهميها أن يراعوا هذا الواقع لكي يقودوا بنجاح حرب التحرير الوطنية ، أو بعبارة أخرى الثورة الجذرية . وتوجب عليهم أن ينتقلوا تدريجياً بانصارهم من مفهوم الثورة البسيطة ذات الأهداف المباشرة الى المفهوم المعقد للتغيير الاجتماعي البعيد المدى . ففي غينيا مثلاً مهد رجال منظمة (PAIGC) للمقاومة المسلّحة بنقاش سياسي في القرى دام ثلاث سنوات وجهدوا في اقناع الفلاحـين بالتخلّي عن الكثير من المعتقدات الثابتة وابدالها بمعتقدات جديدة . وليس في ذلك شيء من الغيبيات . وبدأ البرتغاليون في ١٩٦٣ ــ ٦٤ في تدمير المناطق التابعة للثورة والقرى الخاضعة

لهذه المنظمة تدميراً قياسياً . وقامت هذه المنظمة بحملة مركزة لحفر الملاجىء في القرى فكان يقول الفلاحون : « كلا ! الأرض هي مقر الجدود المقدّس فلا يمكن حفرها دون اهانة الأرواح التي تحرس وتوجه حياتنا . » ثم غيّروا رأيهم فيما بعد نظراً لاستمرار التدمير . وبسبب هذا النحو من التفكير كان كثير من الغانيين يترددون في دخول الغابات لأنها المستقر التقليدي للأرواح الكلية القدرة . ثم تعاموا فيما بعد استخدام هذه الغابات ملاجىء طبيعية ومناطق للعمليات ضد الجيوش البرتغالية ، وكل هذا يصوّر بوضوح ما اعنيه عندما أتحدث عن الثورة على البنى التقليدية . لقد كان احد النجاحات الاقتصادية التي حققتهامنظمة PAIGC هو اقناع زارعي الأرز بأن يتبنوا طرقاً حديثة في الزراعة وعلاقات انتاج جديدة وتعاونية الى ابعد مدى . اما الوجه الآخر للثورة اي الثورة ضد البنى الاستعمارية فهو في غاية الوضوح . فبعدان طردت هذه المنظمة البرتغاليين من مناطق ريفية شاسعة بدأت باقناع الفلاحين بأن يرسلوا أولادهم الى مدارس يشرف عليها معلمون أعدتهم هذه المنظمة .

واحدثت عشرات المدارس منذ ١٩٦٦ في مناطق لم يسبق لها ان رأتها من قبل . وثمة امر عظيم الأهمية وهو ان هذه المنظمة قد نصبت في القرى لجاناً محلية لتنظيم الحياة العادية فيها . وبمقدار ما كانت الحرب تتقدم كانت هذه المنظمة تنشىء بنى متدرجة في الديمقراطية . ولما كان ذلك المجتمع الهائم قد اعتاد ان يحكم نفسه حكماً وراثياً قائماً على التمركز حول البكر فقد اخذ يحكم نفسه من خلال شبكة من اللجان حكماً يجمع بين الأوضاع والعادات التقليدية بعد اقصاء الزعماء الذين جعل البرتغاليون منهم أدوات غير مباشرة لحكمهم . وهكذا فقد ارتبط الشعب ارتباطاً عضوياً بمصير بلده . وهذه امثلة تكفي للتعبير عمّا تعنيه الثورة

الافريقية التي تولد على ارض هذه القارة وتنبثق عن تاريخها ، وتعطي الدليل القاطع على انه ما من قاعدة او عقيدة او نموذج مستورد من الخارج يمكن ان يُطبّق هنا .. صحيح ان كل هذه النشاطات التي تستهدف تحولاً ذاتياً قياسياً يجب ان تسير في الاتجاه الاشتراكي . وصحيح ايضاً ان هذه الأشكال من المجتمعات ينبغي ألا تكون رأسمالية ، بل مناهضة للامبريالية لكن الأمر الأساسي هو ان هذه النشاطات تصير الى العدم إن لم تنطلق من المعطيات والطاقات التي تقدمها افريقيا ذاتها .

انا نخشى ان تفاجئنا تقلبات اخرى ، ولكن تحليلنا لا يفقد قيمته لأنه يمكننا من التمييز بين التقلبات المفيدة وغير المفيدة . لقد ارتبطت افريقيا تاريخياً بتطور طويل وشاق وبنمط نوعي من التحولات الذاتية . فالتقلبات المفيدة وحدها هي التي تُعين على انجاز هذا التطور ، اما غير المفيدة فهي التي تحول دون ذلك .

عودة الطائر الى البحر

تأليف : حليم بركات

عرض وتحليل : جورج سالم

يبدي حليم بركات طموحاً كبيراً حين يتصدى لمعالجة موضوع بالغ الحساسية ، شديد التعقيد ، هو موضوع العدوان الاسرائيلي على العرب في الخامس من حزيران . ولاشك في أن هذا العدوان قد أثر في كل عربي وهز ضميره ، كما نتجت عنه آثار تجلت على مختلف مستويات الافراد والجماعة . فالى أي حد وفق الروائي في معالجة هذا الموضوع؟ وما التكنيك الذي لجأ اليه ليعبر عن هذه التجربة الحادة الاليمة ؟

ان قيمة هذه الرواية تكمن ، في اعتقادي ، في اعتمادها على اسلوب فني جديد . ولولا هذا الاسلوب — لولا هذا التكنيك — لفقدت كل قيمتها . وعلى هذا فنحن أمام رواية تنتمي الى التيار الجديد في الرواية العربية ، هذا التيار الذي يرفض الطريقة التقليدية في صياغة الرواية وتصوير الاشخاص ، وفي بناء الجملة نفسها ، ويسعى الى ابتكار تكنيك جديد لا يخلو من تأثرات بالمحاولات الروائية

الجديدة في الرواية الغربية الحديثة والاساليب السينمائية الراهنة . وعسى ان نتبين ملامح هذا التكنيك من خلال دراسة الرواية وتحليلها .

تتألف هذه الرواية من ثلاثة أقسام ، واذا كانت الرواية ، أية رواية ، فناً يعتمد كلياً على مفهوم الزمان ، بمعنى ان الزمان عنصر من عناصر بنائها وتكوينها، فان الزمان في هذه الرواية يمثل ايقاع الفصول والأقسام فيها . الا أن الكاتب يعتمد على الزمن الخارجي ، الزمن التاريخي . وهكذا فالقسم الأول يبدأ بالحادي عشر من حزيران وينتهي بالعشرين منه ، ويبدأ القسم الثاني بالخامس من حزيران وينتهي بالعاشر منه ، ونعود في القسم الثالث الى نقطة البداية حيث يبدأ كذلك بالحادي عشر من حزيران وينتهي بالعشرين منه . وفي الواقع فان القسمين الأول والثالث لايعدوان أن يشكلا مقدمة وخاتمة صغيرتين تدوران حول القسم الثاني الذي يشكل محور الرواية ، وهذا بدوره يتخذ الزمن ايقاعاً له ، فهو مقسم الى ستة أيام هي أيام الحرب المعروفة .

يطلق المؤلف على القسم الأول اسم « العتبة » . فما العتبة ؟

يستعير الروائي ههنا صورة من الكوميديا الالهية لدانتي . بل ان في القسم الأول كله تأثرات واضحة بدانتي . فالعتبة هي الحد الذي يفصل المطهر عن الفردوس ، ولكي يصل الانسان الى الفردوس لابد له من أن يمر بالمطهر حيث يحترق ويتألم . ولهذا كان القسم الاول من الرواية صوراً خاطفة عن العربي الفلسطيني الذي اكتوى بالنابالم وأحرقته القنابل وفقد أولاده ومنزله ، يصور المؤلف ذلك كله من خلال لقطات سريعة لأشخاص متعددين ، من النازحين الى الأردن الذين امتلأت بهم المستشفيات والمدارس . وفي هذا القسم يقدم المؤلف الشخصية الرئيسية في الرواية : رمزي صفدي الذي « يلاحقه الصراخ اينما ذهب : اتركوني أمت ،

اتركوني .. انه مأخوذ بهذا العالم المرعوب حوله ، بل يحس كأنه بعض من فتات هذا العالم ، يراقب وجوه النـــازحين ، انهم لايقطنون وجوههم . مفصولون عن وجوههم . انها شاحبة ومهجورة . العيون مبهورة . الشفاه مغلقة . يعيشون الوهلة الاولى التي تعقب الصدمة .. » ويتابع رمزي صفدي رحلته في هذا العالم المخيف المشتعل ، وسرعان ما تتداخل رؤى الكوميديا الالهية بالعالم المحيط به ، فيلتقي برؤوس محفورة في الصخور وبأرواح تحيط به ، فيحاورها وتحاوره فنستبين ملمحاً أساسياً من ملامح شخصيته : انه انسان يرفض كل شيء ، يرفض النظم بشتى أشكالها والمعتقدات ، وبكلمة مختصرة انه يرفض العالم ، وهو مرفوض من العالم . يقول في حواره مع الرأس المنحوت على الصخور : « لست جزءاً من أي شيء ، الذي اعرفه عن نفسي انني رافض ومرفوض » . ثم ينتقل بين المدارس والمستشفيات حيث « يتراكم النازحون من الضفة . يقفون مخطوفين لايصدّقون ان ما حدث لهم قد حدث فعلاً ... »

أما نهاية هذا القسم فهي هليلويا هندل ، ولكنها هليلويا جديدة ليس فيها محبة وليس فيها أمن انغام هندل وطمأنينتها والقداسة والرفعة اللتان تسموان بالانسان ، بـــل هي هليلويا للرصاص الذي يتعمد في نهر الاردن فيشوه انسانية الانسان .

وبعد هذا القسم يعود بنا المؤلف ، في القسم الثاني ، الى الخلف : امواج الاصوات والريح الجنوبية . فيرصد الاحداث في الفترة الممتدة بين الخامس من حزيران والعاشر منه من خلال عدد من الشخصيات ، أهمها رمزي صفدي وطه كنعان وعدد كبير من الاشخاص غيرهم منهم المدرّسون في الجامعة زملاء رمزي صفدي ، ومنهم طلابه ، ومنهم فلسطينيون يقيمون في بيروت وآخرون يقيمون

في الضفة الغربية . والى جانب هؤلاء كلهم (باميلا) المرأةالاميركية التيفرضت نفسها ضيفة على البطل . وان هذا الحشد الكبير من الاشخاص هو وحدهالذياتاح للكاتب أن يصور بكثيرمن التوفيق احداث الايام الستة ، واذا كانتهذهالرواية قد استطاعت أن تلم الماماً واسعاً بالاحداث والمشاعر التي انتابت العرب في هذه الفترة ، فمرد ذلك الى تعدد الاشخاص من جهة ، وتعدد الاماكن التيبتحركون فيها من جهة ثانية ، وبهذا تغلب الروائي على مشكلة الزمان المحدود الذي تدور فيه الاحداث . ولا بد ان نلاحظ ان المؤلف يعمد الى طريقة فنية قادرة على الايحاء والتصوير في نقل الاحداث والاشخاص ، ونعني بها طريقة التواقت ، فهو لايلجأ ، كما هي الحالفي الرواية التقليدية ، الى عرض كل شخصية على حدة ودراسة تطورها ونموها وعلاقتها بالشخصيات الاخرى والتقائها بهم واصطدامها معهم ، بل يعرض تلك الشخصيات في وقت واحد ، فبينا نستمع الى مناقشة البطل لزملائه المدرسين في الجامعة ، ومظاهرات الطلاب ، وسعي طه كنعان الى تنظيم حركة المقاومة ، نستمع اثناء ذلك الى الاذاعات العربية ، والى اذاعة الطلبة في الجامعة ، ونشاهد تصرفات عرب فلسطين وردود افعالهم ، ومن هـــذه الجزئيات الدقيقة المتناثرة تتكون اللوحة الكاملة للحرب ونتائجها وآثارها . وقوام فن الكاتب يتركز في اختيار هذهالجزئيات التي تبدو للوهلة الاولى يسيرة هامشية ليستبذات شأن ، ولكنها تكتسب دلالتها حين يربطها المؤلف ربطاً محكماً فتصبح معبرة كأقوى ما يكون التعبير . وهناك فوق هذا وقبله سعي البطل للبحث عناسباب التخلف التي ادت الى الهزيمة ، وهربه من العالم الذي يحيط به عن طريق الجنس ، وذلك في مغامرة حسية عنيفة يخوضها مع صديقته المرأة الاجنبية .

يعتمد المؤلف في القسم الثاني هـــذا ، قبل كل شيء ، على مجموعة من

الاحداث السياسية والتاريخية ، هي الهيكل العظمي الذي ينتظم الايام الستة ، والمنطلق الذي بنيت عليه الرواية . ولو أن الروائي قصر حديثه عليها وحسب لكنا امام كتاب تاريخي بحت ، ولخرجنا عن نطاق الفن الروائي . الا أن المؤلف اعتمد على هذه الاحداث ثم انتقل منها ليصل الى كائنات حية أبدعها ، وبهذا وحده انتقل من التاريخ الى الادب .

وتبرز في هذا القسم كذلك وتكاد تطغى عليه ثقافة المؤلف التي أفاد منها أحسن افادة . فهنا تتجلى ثقافته الأدبية الواسعة حين ينقل تجربة إليوت في الأرض الخراب وتجربة شعراء آخرين الى الواقع العربي ، في نوع من الاضفاء الذي يفسر الأحداث ويضيئها ، كما تتجلى ثقافته الفنية حيث يستعير أسطورة الهولندي الطائر في الأوبرا المعروفة لفاغنر ، ومن هذه الاسطورة استوحى عنوان الرواية ، والأسطورة تدور حول سفينة مسحورة لايمكنها الوصول الى ميناء ، وهي لاتزال تبحر منذ الأزل « كان الهولندي الطائر قد أقسم أنه سيدور حول جبل تحيط به العواصف العاتية ، وان اضطر أن يبحر حتى يوم القيامة . وغضبت الآلهة او الشياطين حين سمعت قسمه فحكمت عليه ان يبحر منفياً الى الأبد ، ولن تحل عنه هذه اللعنة مالم يجد امرأة تخلص له حتى الموت . الشياطين لاتؤمن بالمرأة فسمحت للهولندي الطائر بالعودة الى البر كل سبع سنوات ليبحث عن امرأة تخلص له حتى الموت . » وفي ذلك نلمس رمزاً واضحاً لأرض فلسطين التي لن تتحرر من اسارها الا اذا وجدت اشخاصاً يخلصون لها حتى الموت . ومن الواضح كذلك ان الروائي لما يشير الى المقاومة الفلسطينية في رمزه هذا . ولا تلبث رواية الروائي هذه ان تتضح وتشتد ليعتبر العمل الفدائي وحده هو السبيل الى

تحرير الأرض المغتصبة ، اذ يرفض البطل كل ماهو قائم « حركة الفدائيين يجب ان تستمر . انها املنا الوحيد » . كما يقول البطل .

كذلك يستفيد الروائي من ثقافته الدينية في فصل شديد العمق عنوانه « مرة اخرى يجتن يعقوب الفلسطينيين فيهدم المسرح » . حيث يربط بين اساليب اليهودية في القديم وأساليب الصهيونية في الحديث ، فيرى ان تاريخهم يعيد نفسه وأنهم لم يحملوا للشعوب التي عاشت بجوارهم الا الغدر والدمار والهلاك .

وفي هذا القسم يربط الروائي بين الصهيونية والنازية ، عن طريق صدام الراهبة (الأخت ماري تيريز) السويسرية التي اقبلت تعنى بالجرحى ، بالصهاينة ، في مشهد مفجع ، وذلك حين يرفض الضباط الصهاينة تقديم سيارة المستشفى التي سرقوها لاسعاف الجرحى ونقل القتلى كيما يقضوا بذلك على من ظل على قيد الحياة من العرب .

واخيراً نجد المؤلف يربط بين الثورة الفلسطينية والثورات التحررية في العالم ، وبذلك يعطي الثورة الفلسطينية أبعادها الانسانية التحررية .

أما بحث البطل عن اسباب الضعف التي ادت الى الهزيمة فتشمل معظم اجزاء هذا القسم ، وانها لكثيرة ، وليس يعنينا في هذا المجال ان نعددها او نبحثها ، ولكننا نشير الى قدرة الروائي على عرضها عرضاً محسوساً يغني الرواية متجنبا الانزلاق الى التقرير ، ملحا الحاحا كبيرا على الكبت والحرمان الجنسي في حياة العربي ، وتبدد طاقاته نتيجة عدم تنظيمه .

فاذا انتقلنا الى القسم الثالث « أيام عديدة من الغبار » وجدنا البطل قد قرر هو ورفقاؤه وطلابه جمع الأدوية والتوجه الى الاردن ، وهناك جابه المأساة بكل هولها . يقول : « من مكان عال يطل رمزي صفدي على نهر الاردن ، نبضات قلبه

تسرع أو تتباطأ . لا يدري . لا يصدق ان الأرض وراء النهر أصبحت ممنوعة عليه . لا يمكنه أن يعبر الأردن . في السابق لم يكن بامكانه أن يزور حيفا ويافا وعكا وصفد والناصرة والرملة واللد ، والآن لا يمكنه بالاضافة الى ذلك أن يزور القدس ورام الله وبيت لحم والخليل ونابلس وجنين وقلقيلية وطولكرم . لا يصدق . ماذا يجري لبلاده . يحس أن بلاده طفل ممزق الوجه ، يكاد يغمض عينيه . ينظر الى نهر الاردن من فوق . يبدو له مثل ساقية من الدموع تجري في وجه الوادي » .

في هذه الفترة تزداد مخيمات اللاجئين ، ويصور الروائي في هذا القسم حادثتين معبرتين : الاولى ولادة عدة نسوة عربيات ، والثانية موت أحد الفدائيين . مما يذكر بمحمد ديب في تصويره للثورة الجزائرية . يقول الروائي : « .... ويأتي من يخبرهم أن عربية ولدت بنتاً في الليل .. وان جارة لها ولدت أيضاً بنتاً .. وان عائلة تعيش في طولكرم نزفت صبياً .. في الطريق يرون تجمعاً أمام احدى الخيم . يسألون ما يجري ؟ يشرح أحدهم أن العائلة النازلة في تلك الخيمة استلمت خبراً أن ابنهم قتل بعد ما زرع لغماً في مستعمرة اسرائيلية .

ـ فدائي ؟

ـ أيوه .

كلمة فدائي تثير مشاعر رمزي . تعيد اليه كبرياءه ، وايمانه بحاله كعربي . أصبحت بالنسبة له رمزاً لانسان يتمكن ان يرفض كل مغريات العالم التي تتكالب علينا ونتصادم من أجلها ونبيعها حياتنا ... »

وتنتهي الرواية برغبة البطل في أن يتغير ويغير ما حوله ، في أن تكون

له جذور وان يكون له ظل، الا أن المؤلف يبقي ذلك كلّه في حدود الأمنيات. وأغلب الظن ان طبيعة هـــذا المثقف ووضعه وماضيه تحول دون تحقيق هذه الامنيات .

. . .

نخلص من ذلك كلّه الى القول انا امام رواية جديدة في مضمونها وفي طريقة بنيانها واسلوبها المتوتر الحـــاد . ورغم ان بطلها الرئيسي شخصية ترقب الحوادث وتنفعل بها اكثر مما تؤثر فيها ، الا أن الكاتب استطاع من خلال هذه الشخصية والشخصيات الاخرى ولا سيما الفلسطينية منها ، ومن خلال الاحداث التي صوّرها ، ان يعبّر تعبيراً فنياً عن النكسة التي تعرّض لها العرب في حزيران. وقد ساعده على الاجادة في ذلك ، ثقافته الواسعة الغنيّة والطريقة الروائية الجديدة التي اعتمد عليها .

الديوان : بائعو الاقدار والزجاج الملون

المؤلف : محمد ياسر شرف

الناشر : ؟

عرض ونقد : عادل ابو شنب

لم أكن أدري أن للشاعر ، صاحب هذا الديوان، إنتاجاً سابقاً حتى قرأت ثبتاً بأعماله في آخر ديوانه (١) . وأن يكون صاحب اربعة أعمال خلال سنتين تقريباً : فالإيحاء كبير بأن عطاءه قد أثمر وإلا لكان قد توقف .

على أن هذه البديهية ليست صادقة في كل الاحيان، فالعناد ، والرغبة في تأكيد الذات ، والهوس بالنشر ، عوامل مختلفة في دحض البديهية المذكورة ، وان كان يتم ذلك على حساب الفن نفسه، وربما على حساب الورق الأبيض المظلوم والمداد الذي اسهم في ارتكاب الجريمة !!

بلا قصد تسير الكائنات « البيض » و « السوداء »

و « الصفر »

وطلع النار .. و « الاخلاط » و « الكبر »

(١) الشاعر ، الفجر الجديد - ايلول ١٩٦٩ - بطاقة غير عادية من الارض المحتلة - كانون اول ١٩٦٩ - همسات - حزيران ١٩٧٠ -

وتحلق واجهات من زجاج « الدّين » و « الجنة »

تلونها ..

وترفعها ..(١)

هذا النموذج من شعر الشاعر أثبت على الغلاف الأخير مع صورته ، ربما للتأكيد على هوية الشعر المطروح في الكتاب ، ككل ، وعلى جانب من شكله وجانب من مضمونه ، وهو — النموذج — تعبير عن شعر الشاعر فعــلاً ، فاذا قرأت الأبيات ، أعلاه ، فكأنك قرأت الديوان كله ، وربما شعر الشاعر في دواوينه الأربعة .

والملاحظات التي يمكن ان أسوقها في عجالة نقدية كهذه تنحصر أولاً في المضمون ..

إن الأفكار التي حاول الشاعر تجسيدها .. أفكار مطروقة من قبل، فأن يحمل شاعر على السلطة المجحفة أو على الحاكم الظالم ، وأن يدافع شاعر عن الفقراء ويشهر سلاح الكلمة في وجه الأغنياء ،وأن يكشف الزيف فتلك امور قديمة حاول فيها الشعراء ، ولا يعيب شاعراً جديداً ان يحاول هو ايضاً ، لكن المأخذ الذي يمكن ان يقال هو ان شاعرنا لم ينطلق في طرح افكاره من وجهة نظر محددة حاسمة وصريحة . إنه ضد القمع وضد الزيف .. وليس في جعبته ما يدل على موقعه الفكري ، او الايديولوجي ، القادر منه على طرح الحلول البديلة ، الثورية ان صح التعبير .

ويظل الحديث في المضمون قاصراً مادام العمل شعراً ، وفي تناول الشعر، برأيي ، يجب تناول الشكل والشاعرية قبل تناول المضمون .

(١) من قصيدة :بائعو الاقدار والزجاج الملون

١ ــ افتقدت في الديوان الشاعرية . عبثاً حاولت ان اجد ومضة . إن النثرية تغلب على ما في الديوان . ولقد تعمدت ان افتح الديوان كما اتفق وانتقي منه مقطعاً ، فاذا بي امام ما يلي :

يتهلل سجان « الدنيا » بملامح موت « الاصحاب »
ويدور بكأس مسمومة
برداء الخطر .. وبالاصلاب
ويدير صنائع عنف « النعش الأول ــ دوماً ــ »
بعد غياب
ويقضقض لحم الأثواب
ويذرُ ضباب (١)

٢ ــ ثمة الفــاظ كثيرة ، كثيرة جداً ، نسيها النثر فكيف الشعر غيهب (صفحة ٢٥) القرآن (صفحة ٣١) يصطلم (صفحة ٤٨) اتنضاه (صفحة ٦٠) يقضقض (صفحة ٥٦) .. وغيرها .

بكلمة موجزة : ينقص الشاعر الشاعرية حتى يصبح شاعراً ، والمغامرة بطبع ديوان بعد ديوان لا يمكن ان تحيل الناثر شاعراً ومن لايملك شاعرية . . مالكاً لها .

---

(١) صفحة ٥٥

الكتاب : نحو فلسطين ديموقراطية (٥٠ صفحة)،
المؤلف : الدكتور محمد رشيد
الناشر : منظمة التحرير الفلسطينية-مركز الابحاث،
عرض : عادل ابو شنب

تعتبر فكرة الدولة الديموقراطية اللاطائفية التي طرحتها الثورة الفلسطينية.. الحل التقدمي الوحيد الذي يعالج المشكلة من جذورها.

وقد رسم الدكتور محمد رشيد صورة موضحة للفكرة في الكتيب الذي ألفه وصدر في سلسلة « ابحاث فلسطينية » (١) لأن ثورية الفكرة الداعية الى اقامة دولة فلسطينية على أساس ديموقراطي ولا طائفي تجعل قلة من الناس قادرة على تصديقها » (٢)

.. والكتيب ثلاثة اقسام. ففي قسمه الأول طرح للنظرية، وفي القسم الثاني مناقشة لموقف اليهود من فكرة الدولة الديموقراطية. اما القسم الأخير فمحاولة لتقيم فكرة فلسطين الجديدة.

---

(١) عنوان الكتيب « نحو فلسطين ديموقراطية » وهو في الاصل ثلاث مقالات نشرت بالانكليزية في مجلة « فتح » نصف الشهرية في نهاية عام ١٩٦٩

(٢) صفحة ١١.

وكرد على المشككين والشوفينيين يؤكد المؤلف ان فكرة الدولة الديموقراطية لا يمكن ان تنشأ إلا بالتحرير ونتيجة له لا بديلاً عنه ، وان العنصريين الاسرائيليين يستشيطون غضباً منها ، لأنها تكشف تناقضات الصهيونية وتميط اللثام عن الفصام الاخلاقي الذي ينتاب يهود العالم منذ خلق اسرائيل .

وينبه المؤلف الى ان الدعوة لإقامة مجتمع فلسطيني لاطائفي يجب الا يختلط امرها مع الدولة المتعددة الأديان او المزدوجة القومية . وهي بالتالي ليست بأي حال من الأحوال بتراً للثورة والتحرير ، لأن الثورة الفلسطينية ترفض فكرة الدولة العميلة في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة كما ترفض اسرائيل المجردة من طابعها الصهيوني او المعقمة على غرار النمط الذي يدعو له آفنيري .